الدكتور فاروق عمر

الخليج العربي

في العصور الإسلامية

دار القلم
الإمارات العربية
دبي

الإهـداء

أهدي كتابي هذا

الى ضمير الأمة منذ بكور اليقظة . . .
الذين نعوا واقع التجزئة وانشدوا للوحدة . . .
الى شعراء اقطار الخليج العربي التي عانت أكثر من غيرها مأساة التمزق . . .
الى شاعر الكويت خالد الفرج . . . وشاعر الإمارات سالم بن علي العويس . . .
الى شاعر عمان عبدالله بن علي الخليلي . . . وشاعر العراق عدنـان الراوي . . .
والى كل الرواد الأوائل الذين لهـج لسانهم ونبض قلبهم دعاءا لوحدة اقطار الخليج العربي . . . وللوحدة الكبرى .

المؤلف

المحتويات

التمهيد ٩

المقدمة: التسمية ـ الأبعاد الجيوبوليتيكية ـ الحدود الطبيعية. ١١

الفصل الأول: انتشار القبائل العربية في الخليج قبل الإسلام. ١٩
انتشار العرب في العراق (السواد).
انتشار العرب في البحرين.
انتشار العرب في عمان.
انتشار العرب في الأحواز والساحل الشرقي.

الفصل الثاني: الخليج العربي في صدر الإسلام ٣٣
الدعوة إلى الإسلام في البحرين... ردّة البحرين...
ادارة البحرين
الدعوة إلى الإسلام في عمان... الردّة... ادارة عمان.
الخليج والفتوحات الإسلامية: فتح العراق (السواد)
وانتشار الإسلام فيه... فتح الاحواز والساحل الشرقي
وانتشار الاسلام فيه.

الفصل الثالث: السياسة الأموية في منطقة الخليج. ٦٥
العراق شوكة في جنب الأمويين.

اضطراب الأوضاع السياسية في الاحواز.
تفاقم الحركة الخارجية بالبحرين.
نشاط الحركة الاباضية في عمان.

الفصل الرابع: الخليج العربي في عصر العباسيين الأوائل حتى سنة ٢٤٧ هـ. ١٢٩
العراق مركز الخلافة العباسية.
سياسة العباسيين الأوائل الخليجية.
الازدهار الاقتصادي والنشاط التجاري.

الفصل الخامس: الخليج العربي في العصور العباسية المتأخرة حتى سنة ٦٥٦ هـ. ٢٣٣
الأوضاع السياسية العامة في العراق.
الحركات والانتفاضات بالعراق خلال الفترة...
حركة الزنج... القرامط والاسماعيلية... حركة عمران بن شاهين.
الحالة السياسية في الاحواز
البحرين والحركة القرمطية.
عمان والاباضية.

الخاتمة : ٣٣٥

المصادر والمراجع : ٣٤١

المقدّمة

يبدو ان الباحثين قدامىٰ ومعاصرين اختلفوا في تسمية الخليج ومن تحديد أبعاده الجغرافية والجيوبوليتكية.

أما التسمية: فهي ليست مجرد خلاف إسمي وانما تعدّت ذلك لتعكس رؤىٰ سياسية واقتصادية مختلفة.

ولقد كان الاسم المتعارف عليه للخليج في التاريخ القديم هو «البحر الأدنىٰ» حيث يقابله البحر الأعلى[١] وهو البحر الأبيض المتوسط. ولكن حين مخر أمير البحر الإغريقي نيارکوس باسطوله عبر الخليج من جهة سواحله الشرقية العميقة حوالي سنة ٣٢٥ ق.م. سماه «الخليج الفارسي» وذلك لعدم تعرفه على سواحل الخليج العربية. ومن هنا جاءت تسمية بطليموس للخليج باسم الخليج الفارسي[٢]، وهي نفس التسمية التي اخذها الجغرافيون المسلمون من بطليموس بعد ترجمة كتابه إلى العربية في عصر الترجمة. ومهما تعدد الجغرافيون المسلمون[٣] فانهم نقلوا من مصدر واحد هو جغرافية بطليموس.

---

(١) فؤاد جميل، الخليج العربي في مدونات المؤرخين الاقدمين، مجلة سومر جـ١ مجلد ٢٢ ص ٤٠

(٢) مصطفى جواد، بل هو الخليج العربي، مجلة الاقلام، ١١، ١٩٧٠ ص ٧٨ - ٧٩

(٣) راجع كتب المسعودي والمقدسي والاصطخري وابن خرداذبه. والحموي، وابو الفدا والقزويني.

واذا كانت التسمية التي اطلقها بطليموس قد شاعت بعد ترجمتها إلى العربية، فإن مؤرخين آخرين أطلقوا على الخليج اسم « الخليج العربي » ولكن تسميتهم لم تنتشر بسبب عدم تعرف الجغرافيين المسلمين عليها. ومن هؤلاء المؤرخ الروماني بليني (ت ١١٣ م) وقبله سترابون (ت ١٩ م)[١].

وللخليج تسميات أخرىٰ مثل خليج البصرة وخليج القطيف وغيرها، ولكن هذه التسميات متأخرة. وفي اعتقادي ان اسم الخليج هو « الخليج العربي » لأسباب جغرافية وتاريخية وبشرية ولغوية[٢]. فمن الناحية الجغرافية فان السواحل الغربية والشمالية للخليج جزء لا يتجزأ من الجزيرة العربية. إما سواحله الشرقية منها جزء من منطقة السواد، فلا يفصلها فاصل طبيعي عائق عن سهول العراق الجنوبية. بينما يفصلها عن بلاد فارس تلك الكتلة الجبلية المعروفة باسم جبال زاجروس والتي جعلت بين الفرس والخليج ذلك الحاجز الطبيعي الذي منعهم من ركوب البحر، فالفرس لم يركبوا البحر في تاريخهم القديم والوسيط واذا ما حدث وأنشأوا اسطولاً كان بحارته في غالبيتهم من العرب وغيرهم. اما من الناحية التاريخية فان اقاليم الخليج كافة من شرقية وشمالية وغربية تعرضت إلى نفس العوامل والمؤثرات التاريخية تقريباً كما سنرىٰ في معرض كلامنا من فصول هذا الكتاب. اما من الناحية البشرية واللغوية فالمنطقة يسكنها العرب في جميع أطرافها ويتكلمون بطبيعة الحال لغتهم العربية.

من ذلك كله ندرك بأن ليس في الخليج شيء فارسي إلا اسمه الذي تداولته خطأ الكتب والمؤسسات وظهر في الخرائط بصفة خاصة. وأول من انتبه إلى هذا الخطأ واورد ما يثبت عروبة الخليج هو الرحالة كارستن نيبور الذي جاب المنطقة سنة ١٧٦٢ م وأصدر كتابه « رحلات في الجزيرة العربية

---

(١) قدري قلعجي، الخليج العربي، ص ٠٨ - صبري الهيتي، الخليج العربي، ص ٧ - ٨

(٢) محمد متولي، حوض الخليج العربي، الجزء الاول، ص ١٨ - ١٩

وبلدان شرقية أخرىٰ». كما أشار إلى نفس الخطأ ودعا إلى تصحيحه كل من المؤرخ الانكليزي رودريك اوين في كتابه «الفقاعة الذهبية» سنة ١٩٥٧ م وارنولد ويلسون في كتابه عن الخليج[١].

الابعاد الجيوبولتيكية:

واذا كانت المفاهيم المستخدمة حول الخليج العربي في العصر الحديث لا تزال غير مستقرة أو محددة الابعاد لاسباب سياسية ومصالح اقتصادية وعسكرية دولية معقدة[٢] فإن ابعاد الخليج العربي وحدوده كانت في العصور الوسطىٰ الاسلامية واضحة المعالم فهو يكون الجناح الشرقي للوطن العربي ذلك لأن العراق والاحواز والسواحل الشرقية للخليج تكوّن الحد الفاصل بين العرب المسلمين وبين الشعوب الأخرىٰ التي دخلت الاسلام. ويكوّن الخليج العربي من الناحية الثانية الحدود الجنوبية من العالم الاسلامي والممر البحري التجاري الحيوي الذي تتنقل منه التجارة من الشرق الأقصىٰ إلى البحر الأبيض المتوسط ثم أوربا[٣]. ويحتل مركزاً وسطاً من العالم الاسلامي.

أما الأقاليم العربية التي كانت تكوّن الخليج العربي في العصور الاسلامية فهي اقليم السواد أو (العراق) واقليم الاحواز واقليم البحرين واقليم عمان. وتلك هي الوحدات الادارية والسياسية التي تحيط بالخليج العربي في العصر الاسلامي، وهي نفسها التي سنتناولها تاريخياً في كتابنا هذا.

الحدود الطبيعية:

الخليج العربي هو الحد الشرقي من الوطن العربي لا تفصله عنه أية حواجز طبيعية كما وانه يكون وحدة جغرافية واحدة شملت في العصر الاسلامي

---

(١) التوم الطالب، البحرين، ص ٩ - ١٠ (رسالة ماجستير غير مطبوعة)، مصر.

(٢) محجوب عمر، أمن الخليج..، مجلة المستقبل العربي، ٣٠، ١٩٨١ ص ٢٤

(٣) قدري قلعجي، الخليج العربي، ص ٧ فما بعد، ص ٣٧ فما بعد

اقاليم العراق والاحواز والبحرين وعمان. ولا بد لنا ان نوضح منذ البداية حـدود هذه الاقاليم الاربعة كما وضعها الجغرافيون والمؤرخون المسلمون في العصر الاسلامي والتي كانت تتفق مع حدوده التاريخية والادارية على حد سواء.

اما العراق او السواد[١] (وهي كلمة مرادفة للعراق حيث يقول المسعودي ان الرأي الغالب بان السواد هو العراق، ويبدو ان العرب المسلمين اطلقوا اصطلاح السواد على العراق لأن جل اراضيه كانت مستغلة زراعياً). فان حدوده تبدأ من الجنوب بعبادان على الخليج العربي وهي من العراق حيث يشير الخطيب البغدادي[٢] «ان العراق يمتد من بلد إلى عبادان»، وكان دجله العوراء (شط العرب) بين عبادان ومدينة بيان الحد بين ارض الاحواز وارض البصرة، وهي من العراق، ثم تتجه الحدود شمالاً الى مدينة الطيب مارة غرب ارض السوس ثم تحاذي الحدود الجبال مارة بارض الصميرة وارض السيروان. وإلى الشمال من السيروان تقع مدينة حلوان وهي آخر مدن العراق شرقاً بمحاذاة الجبال. وتقع حلوان على نهر الوند احد روافد نهر ديالى ثم تسير الحدود باتجاه شمالي غربي إلى قصر شيرين ثم خانقين. ويذكر البلاذري بعد فتح خانقين انه لم يبق من سواد دجلة ناحية إلا غلب عليها المسلمون وصارت بأيديهم. وتبدأ حدود السواد الشمالية في الشمال الشرقي عند مدخل نهر العظيم في جبل بارما وتساير مجرى العظيم حتى مصبه من دجلة قرب العلث ثم تسير غرباً إلى قرية حربي ثم دير الجاثليق فمدينة بقة على نهر الفرات بين هيت والانبار.

اما حدود العراق الغربية فهي تتحدد بالبادية الذي يراعي تقدم البـاديـة وتأخرها نحو ارض السواد الزراعية. وهذه هي حدود السواد التي رسمت في عهد عمر بن الخطاب (رضي).

---

(١) جمال جودة، العرب والارض في العراق، عمان، ١٩٧٩، ص ٢٩ - ٣٨

(٢) الخطيب البغداوي، تاريخ بغداد، جـ ١ ص ٢٤

اما الاحواز فإن العرب هم الذين اطلقوا عليها هذا الاسم[١]. والاحواز جمع لكلمة حوز مصدر للفعل حاز بمعنى التملك وتستعمل غالباً للدلالة على حيازة الارض وربما استعملت للدلالة على التبعية القبلية او السياسية فيقال احواز الازد او احواز تميم او احواز البصرة. وتعتبر الاحواز امتداداً طبيعياً لسهول السواد ومتصلة بها اتصالاً مباشراً من الناحية الجغرافية ومكملة لها من الناحية الاقتصادية. وقد اكد الجغرافيون المسلمون على ان الاحواز جزء من جزيرة العرب او من الارض العربية التي تحدها سلسلة جبال البختيارية الحالية التي هي جزء من جبال زاجروس الحد الطبيعي بين بلاد فارس وبلاد العرب. وتعتبر مدينة بيان آخر اقليم الاحواز غرباً بينما تعتبر عبادان آخر اقليم العراق شرقاً. ومن مدن الاحواز القديمة سوق الاحواز وهي مركز الاقليم. وعبادان نسبة إلى عبّاد بن الحصين اول من رابط بها. وتسمى الجزيرة التي تقع فيها المدينة جزيرة خضر او المحرزي. ومدينة عسكر مكرم بناها القائد العربي مكرم بن معاوية ايام الحجاج الثقفي. ومدينة المناذر الواقعة عند ملتقى نهر كارون باحد فروعه نهر ديسبول. ومدينة تيري. وبنى الخليفة العباسي المهدي مدينة سماها حصن المهدي.

اما اقليم البحرين[٢] فهو الاقليم الممتد من جنوبي البصرة إلى عمان. وهي متصلة غرباً باليمامة وجنوباً بعمان وشمالاً بالبصرة وشرقاً بمياه الخليج العربي. والبحرين جزء لا يتجزأ من الجزيرة العربية، وقد ذكرها المؤرخون والجغرافيون المسلمون كأحد اقاليم الجزيرة العربية مثل اليمن والحجاز وتهامة واليمامة والبحرين. وكان العرب يسمون الشاطىء الممتد بين البصرة وعمان بالخط وهو يضاف احياناً فيسمى خط عبدالقيس. وبالتحديد فان

---

(١) الحلو، الاحواز، جـ ١، ص ٨ فما بعد.

(٢) التوم الطالب، البحرين، (اطروحة ماجستير غير مطبوعة) ص ١٦ فما بعد. ـ عبد الرحمن النجم، البحرين من صدر الاسلام، بغداد، ١٩٧٣، ص ١٧

السهول الساحلية الممتدة من كاظمة شمالاً حتىٰ رأس مسندم هي البحرين. ويضاف إليها جزيرة أوال وهو الاسم القديم للبحرين الحالية.

ان المصادر الجغرافية لا تهتم كثيراً بتحديد الفواصل بين الاقاليم العربية ربما لكونها وطن واحد يسكنه شعب واحد هذا إضافة إلى التداخل البيئوي بين هذه الاقاليم. إلا انه من الواضح اعتبار الدهناء الحد الفاصل بين البحرين واليمامة من جهة الغرب. ويعتبر ياقوت كاظمة الحد الفاصل بين البحرين والعراق وتسمىٰ كاظمة البحور وهي كثيرة الابار العذبة والمراعي. وتعتبر جرفار الحد الفاصل بين البحرين وعمان. وتسمىٰ احياناً جلفار وقد اندثرت الان رغم وجود اطلالها. ويعدد ياقوت[1] الاماكن والمدن التي تشتمل عليها البحرين وهي «الخط والقطيف والارة وهجر وبينونة والزارة وجواثا والسابور ودارين والغابة وقصبة هجر الصفا والمشقر». وأحياناً يطلق اسم هجر على البحرين من باب إطلاق الجزء على الكل[2].

على ان مدينة هجر ما لبثت ان اندثرت في القرن الثالث الهجري وقامت محلها مدينة الاحساء او الحساء وخاصة بعد سيطرة القرامطة على البحرين. والملاحظ في تحديد البحرين اضطراب الروايات واختلاف الجغرافيين في ذلك ولعل احد اسباب ذلك هو اعتمادهم على الروايات الشفوية والاخبار دون المشاهدة والمعاينة على الطبيعة. فليس كل من كتب في الجغرافية رحل إلى الاصقاع ليتثبت من صحة معلوماته!! هذا ولا بد من الاشارة بان اقليم البحرين يشتمل على عدة جزر ذكرتها مصادرنا وهي جزيرة اوال واسمها القديم ترم وجزيرة شفار وتاروت وحوارين وقطر.

اما اقليم عمان فان المعلومات المتوفرة لدينا في كتب الجغرافية الاسلامية

---

(١) ياقوت، معجم البلدان، جـ ٢ ص ٧٢ - ٧٣

(٢) المصدر السابق، جـ ٥ ص ٣٩٢

لا تساعدنا على تحديد عمان تحديداً دقيقاً. على انها دون شك جزء من جزيرة العرب التي يعتبرها المقدسي وحدة بلدانية واحدة فيقول:

« وهذه صورة جزيرة العرب وقد
جعلناها اربع كور جليلة واربع نواح
نفيسة والكور اولها الحجاز ثم اليمن ثم
عمان ثم هجر (البحرين) . . . »[١]

واقليم عمان كالبحرين لها أكثر من اسم يدل عليها ومن ذلك صحار وهي قصبة عمان ولكنها تطلق احياناً لتدل على كل عمان[٢] من باب تغلب الجزء على الكل كما هو الحال بالنسبة للبحرين وقصبتها هجر.

لقد أشرنا سابقاً بان جلفار هي الحد الفاصل بين البحرين وعمان وهي لذلك حدود عمان الشمالية. أما حدودها الجنوبية فإن ابن الفقيه يشير إلى أن مدينة مسقط تعتبر « آخر عمان »[٣]. ولكن الاصطخري يرى بأن بلاد مهرة تعتبر من عمان « وأما بلاد مهرة فان قصبتها تسمى الشحر. . . ويقال انها من عمان[٤] ». وهذا يدل على ان اقليم عمان كان يمتد إلى الشحر. وليس هناك مشكلة في تحديد الحدود الشرقية والغربية لعمان حيث انها من جهة الشرق « منقطع التراب » لاتصالها بالبحر[٥] ومن جهة الغرب يحدها البحر الرملي (الربع الخالي).

وقد عدد المقدسي عدداً لا بأس به من مدن عمان لعل أولها صحار وهي

---

(١) المقدسي احسن التقاسيم، ص ٦٨ فما بعد

(٢) المصدر السابق، ص ٣٠ - ولعمان اسم آخر هو (مزون) والغبراء او الغبيراء.

(٣) ابن الفقيه كتاب البلدان، ص ١١

(٤) الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٢٧. - ياقوت، جـ ٤ ص ٥٢١. - العاني، عمان. . . ص ٢٧

(٥) الهمذاني، الاطليل، جـ ٢ ص ٢٧٠.

قصبة عمان « بلدة طريفة ممتدة على البحر دورهم من الآجر والساج شاهقة نفيسة والجامع على البحر له منارة حسنة طويلة في آخر الاسواق. ولهم ابار عذيبية وقناة حلوة وهم في سعة من العيش. دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق ومفوثه اليمن...»[1] ويستمر المقدسي في ذكره لمدن عمان فيشير إلى نزوة والسر وحفيت ودبا وسلوت والقلعة وضنكان ومسقط وتؤام وسمد وجلفار وغيرها. وينفرد المقدسي بالاشارة إلى ارتفاع نسبة الرطوبة في جو عمان مع الحرارة الشديدة فيقول: « وينزل عليهم في الليالي شبه الدبس »[2].

---

(١) المقدسي، المصدر السابق، ص ٩٢ - ٩٣

(٢) المصدر السابق، ص ٩٥

الفصل الاول

انتشار القبائل العربية في الخليج قبل الاسلام

منطقة الخليج ارض عربية سكنتها قبائل عربية مختلفة قبل الاسلام ولم تنفك الهجرة اليها من الوطن الام ـ الجزيرة العربية ـ مستمرة متصلة وتدل رواياتنا التاريخية على كثرة السكان في هذا الاقليم وتعدد المدن والقرى وتقاربها . ويبدو ان توفر المياه العذبة والارض الخصبة في الخليج اضافة الى التجارة البحرية كانت من العوامل التي تجذب القبائل الى هذا الاقليم .

ويرجع استيطـان العرب في منطقة الخليج إلى عهود سحيقة في القدم حيث تشير روايات تاريخية إلى نزوح العمالقة اولاد عملاق بن لاوذ وطسم اولاد طسم بن لاوذ الى البحرين واستقرارهم هناك[١] . والمعروف ان العمالقة وطسم من العرب العاربة (اليمانية) وجاء بعدهم العرب المستعربة (العدنانية) حيث نزحت قضاعة او بعض بطونها الى البحرين[٢] . واستمرت هذه الهجرات متصلة في العصور التاريخية كما سنرى .

---

(١) ياقوت، معجم البلدان، جـ ١ ص ٤١

(٢) ابن عبد البر، سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، ص ١٩ . ـ البكري، معجم ما استعجم، جـ ١ ص ٢١

انتشار العرب بالعراق:

للعرب صلات وثيقة بالعراق قبل الاسلام بمدة طويلة. فقد كانوا مستقرين في اطراف منه كالحيرة وعين التمر والانبار. كما كانت قبائل عربية اخرىٰ تتنقل في اطرافه وبواديه مثل بادية الكوفة وبادية البصرة.

وكان العرب يسمون سكان العراق المستقرين في قرىٰ السواد والمشتغلين بالزراعة (النبط) لانهم على حد قول الخطيب البغدادي هم الذين « استنبطوا الارض وعمروا السواد وحفروا الانهار العظام فيه[١] ». كما وان ابن وحشية يستعمل اصطلاح النبط للدلالة على سكان العراق القدماء من الساميين عموماً بصرف النظر عن انتمائهم إلى اصول متعددة[٢].

ولقد كان التواصل مستمراً بين عرب الجزيرة العربية وعرب العراق يشتد حيناً ويخفت حيناً آخر لاسباب سياسية تتعلق بالوضع السياسي في العراق ولأسباب اقتصادية او قبلية او غيرها. وقد وردت اشارات إلى هجرات قبلية عربية إلى العراق في حوالي ٢٥٠ ق.م بسبب التخلخل السياسي وضعف الدولة فخرجت الازد وقضاعة إلى العراق واستطاعوا ان يتغلبوا على بعض النواحي ويحكموها.

وكان في اطراف السواد مجموعة من القبائل العربية منها: اياد وبكر بن وائل وتميم وتغلب والنمر وكلب وقضاعة وأسد.

اما اياد فقد هاجرت للعراق في بداية القرن الثالث الميلادي واستقرت في الريف بمنطقة الحيرة غربي الفرات ما بين كربلاء وبادية البصرة. وقد تعرضت هذه القبيلة لهجمات شديدة من قبل الساسانيين لاجلائهم عن المنطقة. اما بكر بن وائل فنزلت كاظمة وذي قار وانتشرت ما بين الحيرة والانبار.

---

(١) الخطيب، تاريخ بغداد، جـ ١ ص ٥٧

(٢) جمال جودة، العرب والارض في العراق، ص ٥٩

ويشير الهمداني الى وجودها كذلك بالبحرين واليمامة. ويرو ذكر بكر بن وائل لاول مرة في القرن الرابع الميلادي اذ كانوا يقومون بغارات على السواد مع تميم وعبد القيس. وحققت بكر انتصارها الرائع على الفرس الساسانيين في (معركة ذي قار) حوالي سنة ٦٠٥ م[١]. اما قبيلة تميم فانتشرت في بادية البصرة ولها بطون في بادية الكوفة وتعود صلتها بالعراق الى القرن السادس الميلادي. وقد زاد عددها في بداية القرن السابع الميلادي. وقد سمح لهم الفرس الساسانيون بدخول الريف العراقي. وقد اشرنا سابقاً إلى ان قضاعة وكلب هاجرتا الى العراق في القرن الثالث قبل الميلاد واستوطنتا ما بين الانبار وتكريت. وجاء ذكر بني اسد في بادية الكوفة من العراق.

ويبدو من ذلك ان هجرة القبائل العربية إلى العراق اشتدت في فترة الضعف السياسي وقبيل قيام الدولة الساسانية سنة ٢٢٦ م. ولهذا فقد جعلت هذه الدولة من اهم اهدافها صد الاندفاع العربي نحو العراق باقامة دويلة حاجزة هي مملكة الحيرة للوقوف امام ضغط القبائل العربية. وقد قامت مملكة الحيرة بهذا الدور الى حين حيث انها في النصف الثامن من القرن السادس الميلادي لم تعد قادرة على درء خطر القبائل العربية باتجاه السواد. وكانت الحيرة مدينة عربية بالعراق فان غالبية سكانها من قبائل جعفى وطي وكلب وتميم والازد ولخم وغسان وكندة ونبو الحارث وغيرهم. ويلاحظ ان جلهم من اليمن ما عدا تميم. وكانت تنوخ تسكن خارج الحيرة بينها وبين الانبار. كما التحق بها مجموعات قبلية اخرى سميت بالاحلاف[٢].

وحين غزا الفرس الساسانيون العراق ضموه إلى امبراطوريتهم وقد

---

(١) البلازري، انساب، القسم الثاني. ص ١٠٣٨ - اليعقوبي، تاريخ، جـ ١ ص ٢١٢ فما بعد

(٢) جودة، المصدر السابق، ص ٦٢ فما بعد

استمرت السيطرة الاجنبية الفارسية على العراق اكثر من اربع قرون كان الفرس يشكلون الطبقة الحاكمة فيه واستقروا بالمدائن شرقي دجلة. وكان لديهم مسالح على حدود السواد الغربية في عيون الطف والابله والحيرة والعذيب والقادسية وعين التمر والانبار وغيرها. ولا بد من الاشارة الى ان المنطقة ما بين دجلة والفرات (السواد) تكاد تخلو من الوجود الفارسي. ولذلك فالفرس كانوا يدركون ان العراق غريب عليهم وانهم محتلون مستغلون له فلم يعتبروه منطقة استيطان او استقرار لهم[١]. كما وان الفرس الساسانين ادركوا خطورة التواصل بين عرب الجزيرة وعرب العراق فقرروا منذ قيامهم انشاء حواجز بين ارض السواد العراقية وبين ارض الجزيرة العربية. فقد اضطر سابور الساساني (٣١٠ ـ ٣٧٩) الى حفر خندق من هيت الى كاظمة على الخليج العربي لمنع القبائل من الاتصال بسواد العراق. هذا إلى جملة من الإجراءات التعسفية الاخرى مثل الغارات الوحشية على القبائل وردم العيون والابار. وما اقامة مملكة الحيرة الاَّ مظهراً من مظاهر هذه السياسة الفارسية الا ان الحيرة على العكس غدت نقطة جذب للقبائل للاستقرار بها وحولها بدل ما كان يريده الساسانيون منها وهي ان تكون نقطة طرد للعرب. وهكذا استمر التواصل بين الجزيرة والعراق واستمر معه التدفق العربي إلى العراق حتى كانت الهجرة الجديدة مع الفتح الاسلامي سنة ٦٣٧ م.

انتشار العرب بالبحرين:

لعل اقدم القبائل العربية التي استوطنت البحرين بعد العرب البائدة هي قبيلة تنوخ. ويشير ابن الاثير الى ان قضاعة تحالفت مع بطون من نمار بن لخم ودعوا اليهم بطن من الازد فتحالفوا جميعهم إلى التنوخ، اي إلى الاستقرار والتعاهد فسميوا تنوخ ولكنهم ما لبثوا ان هاجروا إلى سواد العراق[٢].

---

(١) نفس المصدر السابق. ـ شكري فيصل، حركة الفتح الاسلامي، ص ٦٢ فما بعد

(٢) التوم الطالب، البحرين، اطروحة ماجستير غير مطبوعة. ص ٦١. ـ

ويحدثنا الهمذاني[١] عن قبائل الازد التي تعتبر من اقدم القبائل التي استوطنت البحرين ويرى انها هاجرت من اليمن بعد انهيار سد مأرب وانهم ساروا باتجاه عمان ومن هناك تفرقوا نحو البحرين. وكانت مساكنهم في جزيرة أوال ولعبوا دوراً سياسياً مهماً فيها.

وكانت اياد تسكن تهامة ولكن المنازعات التي دارت بينها وبين ربيعة ومضر اضطرتها إلى الهجرة إلى البحرين. ولكنها عادت فاصطدمت بعبد القيس التي استطاعت ان تزيحها من البحرين.

وتعتبر بكر بن وائل من القبائل المهمة التي سكنت البحرين ذلك لان اوسع هجراتهم شملت البحرين واطراف سواد العراق[٢]

اما تميم فهي بطون كثيرة سكنت بعضها البحرين[٣] واستطابت الاقامة فيها ولهذا نراها منتشرة في ربوعها. وتتمثل في تميم قيم البداوة في التأكيد على حريتها وعدم الخضوع لسلطان الفرس بل كانوا ينتهزون اية فرصة للهجوم على المراكز الفارسية والقوافل التجارية التابعة لهم. وكان يوم الصفقة قرب حصن المشقر بين تميم والفرس شبيهاً بيوم ذي قار.

وقد جاءت عبد القيس إلى البحرين من تهامة وتغلبت على اياد والازد. وانتشرت بطون عبد القيس في أكثر اطراف البحرين ونزلوا اهم مدنها وسواحلها. وتحفل مصادرنا بذكر العديد من القرى والاماكن التابعة لعبد القيس بالبحرين ولذلك عدَّ بعض المؤرخين البحرين لعبد القيس. وقد كان اشهر زعماء البحرين الذين وفدوا على الرسول ﷺ ينتمون إلى عبد القيس. وكان العرب يسمون الشاطيء الممتد من البصرة إلى عمان بالخط او خط عبد القيس. ووصفهم ابن قتيبة بانهم (عبد القيس) اهل البحرين.

---

(١) الهمذاني صف جزيرة العرب، ص ٢٠٩

(٢) الهمذاني، صف جزيرة العرب، ص ١٦٩. - عبد الرحمن النجم، البحرين، ٤٢

(٣) البكري، معجم ما استعجم، ص ٨٧ فما بعد. - عبد الرحمن النجم، البحرين، ٤٣

وسكن البحرين عدا العرب وهم الغالبية العظمىٰ من السكان، عناصر اخرىٰ غريبة على المنطقة منهم الزط وتتفق غالبية المصادر على انهم من السند من سلالة هندية استعملها الفرس في الجيش الساساني. وقد انضموا الى المرتدين بالبحرين ثم عادوا فانخرطوا في جيش المسلمين اثناء الفتوحات. ومن العناصر الاخرىٰ السيابجة ويشتركون مع الزط في اصلهم كما وان الفرس استخدموهم في الحرب وفي الاسطول الساساني ثم استخدمهم المسلمون في اسطولهم في الخليج العربي.

انتشار العرب بعمان

سكن عمان العديد من قبائل العرب البائدة مثل عاد التي كانت تسكن الاحقاف وهناك اشارات إلى بطون اخرىٰ من العرب البائدة مثل طسم وجديس[١]. على ان رواياتنا التاريخية الموثوقة تشير إلى هجرة العديد من العرب العاربة الى عمان من اليمن بعد خراب سد مأرب في منتصف القرن السادس الميلادي[٢].

والمعروف ان غالبية القبائل المهاجرة كانت ازدية وكانت اولىٰ هذه الهجرات بزعامة مالك بن فهم. يقول العوتبي[٣]:

« اول من لحق بعمان من الازد مالك بن فهم بن حاتم... وسار مالك حتىٰ دخل عمان بعسكر جم من الخيل والعدة والعدد فوجد بها الفرس.. فاعتزل مالك بمن معه إلى جانب قلهات من شط عمان ليكون ذلك امنع لهم »

وقد تمتعت هذه القبائل باستقلالها في داخل عمان بعيداً عن نفوذ الفرس

---

(١) كاشف، عمان في فجر الاسلام، ص ١٣

(٢) عبد الرحمن العاني، عمان في العصور الاسلامية، ص ٤٣

(٣) العوتبي، مخطوطه انساب العرب، ورقة ٢٥٤ أ. - الازكوي، مخطوطه كشف الغمة ورقة ١٨ أ

المحتلين الذين كانوا يسيطرون على الساحل وإلى ذلك يشير العوتبي والازكوي:

« فكانت الفرس في السواحل وشطوط البحر والازد ملوكاً في البادية والجبال واطراف عمان وكل الامور منوطه بهم »

وكانت توأم مركز القبائل العربية ولها منفذ على البحر هو ميناء دبا ولذا عرف العرب العمانيون البحر منذ اقدم العصور وغدوا امهر ملاحي الخليج العربي. اما مقر الحاكم الاجنبي الفارسي فكان الرستاق ومعه قوة عسكرية ساسانية مركزها صحار على الساحل.

تؤكد روايات تاريخية عديدة إلى ان مالك بن فهم الازدي حقق عدة انتصارات على الفرس وانه اجلاهم منها وسمح لهم بمغادرة عمان إلى بلادهم بأمان. ولكن يبدو ان الفرس انسحبوا من مراكزهم الداخلية وظلوا محتفظين ببعض مراكزهم على الساحل العماني وبموضع قدم على مساحات من سهول عمان.

ثم توالت الهجرات الازدية مثل الحدان والعتيك بعد ان تمكن مالك بن فهم وبسط سيطرته إلى الاحساء والبحرين شمالاً. ثم دخلت قبائل غير ازدية مثل بني سامة بن لؤي الى عمان، وهي من القبائل العدنانية التي غدت حليفة للأزد بعمان[1].

وقد انتقل بعض قبائل عمان، كما حدث في البحرين كذلك، انتقلوا إلى الساحل الشرقي للخليج العربي في تلك الفترة المبكرة مثل بني الجلندى بن كركر وبني سليمة بن مالك بن فهم ووطدوا نفوذهم هناك قبل الاسلام.

ولم يبق نفوذ بني مالك بن فهم على ما هو عليه في عمان بل انتقلت السلطة إلى بني معولة بن شمس وينتمي آل الجلندي بن المستكبر إلي بني معولة.

---

(١) عبد الرحمن العاني، المصدر السابق، ص ٤٧.

وبسبب هذا الانتشار الواسع للازد في عمان يقول البلاذري: «وكان الاغلبيين على عمان الازد[١]». ويشار بان الازد هي التي سمّت عمان عماناً تيمناً بواد لهم باليمن حمل نفس الاسم. وكانت تسمى سابقاً المزون. كما كان لها اسم آخر قبيل الاسلام وبعده بقليل وهو «الغبراء». ومثلما يرتبط تاريخ بني بكر بالعراق بيوم ذي قار، وتاريخ بني تميم بالبحرين بيوم الصفقة، في كفاحهما ضد الفرس المحتلين فإن تاريخ ازد عمان يرتبط بيوم قلهات الذي وقع في النصف الاول من القرن السادس الميلادي حين اصطدم مالك بن فهم الازدي بالفرس وانتصر عليهم واضطرهم الى التراجع نحو الساحل ثم ألحق انتصاره هذا بانتصار جديد انتهى بطرد غالبيتهم من عمان.

وقد توالت هجرات القبائل العربية الى عمان في الفترات التالية مثل بني جرم القضاعيون وبطون من عبد القيس كما كان لهذه القبائل دورها في الفتوحات الاسلامية فيما بعد[٢]. كما وان بعضها انتقل إلى العراق حيث ان تنقلات القبائل في الخليج كانت تتميز بالسيولة والمرونة.

إنتشار العرب في الاحواز:

ان اقليم الاحواز كغيره من الاقاليم العربية الشرقية مثل العراق والبحرين وعمان يعود إستقرار القبائل العربية فيه إلى فترة قديمة ترجع إلى عصور ما قبل الاسلام[٣]. ثم في هجرات متتالية بعد الفتوحات الاسلامية. واصبحوا سادة الخليج براً وبحراً. وفي هذا الصدد يذكر الرحالة نيبور الذي زار الاحواز سنة ١٧٧٢:

«ان العرب هم الذين يمتلكون جميع السواحل البحرية للقسم

---

(١) البلازري، فتوح البلدان، ص ٧٦

(٢) البكري، معجم ما استعجم، جـ ١ ص ٤٨

(٣) للتفصيل راجع د. نزار الحديثّي، اليمن ودور اهلها في الفتوحات... بيروت ١٩٧٩. - و. عبد الرحمن العاني، عمان في العصر الاسلامي، بغداد، ١٩٧٨. - علي الحلو، الاحواز، بغداد، ١٩٦٥

الشرقي من الخليج العربي وانه يستحيل تحديد الوقت الذي انشأ فيه العرب موطنهم على الساحل. وقد جاء في السير القديمة ان العرب انشأوا هذا الموطن منذ عصور سلفت.. في عهد اول ملوك الفرس في القرن السادس قبل الميلاد تقريباً. وان ملوك الفرس لم يتمكنوا قط ان يكونوا اسياد ساحل البحر»[1].

ويؤكد برسي كوكس ذلك فيقول «ان ليس هناك شيء يوضح تأثير العوامل الطبيعية على ميول الناس احسن من النفور الذي يظهره الفرس للبحر الذي تفصلهم عنه حواجز جبلية شاهقة. وعلى هذا الاساس تحمل ملوك الفرس صابرين ان يبقى هذا الساحل ملكاً للعرب. واذا انشأ الفرس اسطولاً اسندوا قيادته للعرب..[2]»

إن هذه الشواهد المتأخرة ما هي في الواقع الا انعكاسات لحالة الساحل الشرقي للخليج العربي منذ ازمنة قديمة حيث هاجرت اليه واستوطنته قبائل عربية عديدة استمر اتصالها بحراً وبراً بالقبائل الاخرى في السواحل الشمالية والغربية للخليج. وقد نزحت هذه القبائل قبل الاسلام ثم توالت الهجرات بعد الاسلام ولذلك يقال بان ليس هناك من عشيرة في الاحواز الا ولها اصل في العراق او البحرين او عمان.

ويعتبر بنو حنظلة من اقدم القبائل التي استقرت في الاحواز قبل الاسلام ثم نزحت قبائل يمانية من مالك وتميم يطلق عليها (بنو العم) ثم هاجرت الصقور ثم بنو كعب وبطونها العديدة. ثم بنو كلب وبنو نمر وبنو أسد.

واستمرت الهجرات في العصور التالية من بني طرف وتميم والاحلاف

---

(١) قدري قلعجي، الخليج العربي، ص ١١

(٢) المصدر السابق

وغيرها[١]. وقد وقعت الاحواز تحت سيطرة الساسانيين سنة ٢٤١ م ولكن سيطرتها ظلت اسمية بحيث بقيت القبائل العربية تتمتع بحريتها التامة وتجارتها البحرية. كما وان بعض شيوخ القبائل العربية في الاحواز وبلاد فارس عموماً تلقب بلقب «ملك» مما يدل على نفوذهم في المنطاق التي يحكمونها. وحين جاء الفتح الاسلامي كانت بعض هذه القبائل خير عون للمسلمين على الفتح.

إن هذه الايام الثلاثة يوم ذي قار ويوم الصفقة ويوم قلهات[٢] تعتبر من ايام التحولات التاريخية الكبرىٰ في تاريخ الخليج العربي فقد جمعت بين عرب العراق والبحرين وعمان نحو هدف واحد مشترك الا وهو طرد الاجنبي الغاصب المتمثل بالفرس الساسانيين واعادة الارض إلى ابنائها العرب.

ثم ان ما حققته القبائل العربية من انتصارات على الفرس اعطىٰ زخماً قوياً لمعنويات العرب وثقتهم بقدراتهم وقد تردد صدىٰ هذه «الايام العربية الخالدة» في انحاء الجزيرة العربية، وكانت البادرة الاولى للفتوحات الاسلامية الكبرىٰ.

والمعروف إن لعمان علاقة وثيقة بالساحل الشرقي للخليج العربي ذلك ان العديد من القبائل العربية المهاجرة الى الساحل الشرقي جاءت من عمان في مراحل تاريخية متعاقبة[٣]. ويرجع الاصمعي انتقال ازد عمان إلى الساحل الشرقي بعد خراب سد مأرب في حوالي منتصف القرن السادس الميلادي. اما الطبري فيرى بان عدداً من قبائل العرب من البحرين وبلاد عبد القيس هاجروا الى الساحل الشرقي في القرن الرابع الميلادي.

---

(١) عبدالرحمن العاني، المصدر السابق، ص ٣٣ فما بعد. حسين خزعل، تاريخ الكويت السياسي، جـ ٣ ص ٨٧

(٢) يسميها قدري قلعجي (ثلاثة ايام عربية خالدة على الخليج) راجع الخليج العربي ص ٥٩

(٣) حول هذا الموضوع راجع الفصل السادس من كتاب عبدالرحمن العاني في العصور الاسلامية الاولى ص ٩٣ قارن نزار الحديثي الحدود الشرقية للوطن العربي، ص ٢١ - ٢٢.

إن الوجود العربي في الساحل الشرقي للخليج امر تؤيده المصادر وقد اعتاد عليه العرب منذ ازمنة قديمة. ثم ان الفرس الساسانيين اتبعوا سياسة تهجير القبائل العربية بالقوة من البحرين وعمان إلى اقاليم فارسية وذلك من اجل الحد من نشاطهم البحري وسيطرتهم على الملاحة في الخليج. فقد هاجم سابور الثاني السواحل الغربية« واسكن بكر بن وائل كرمان.... ومن كان منهم من بني حنظلة بالرميلة من الاهواز.. واسكن قبائل تغلب وعبد القيس وبكر بن وائل كرمان وتوج والاهواز». ولكن سياسة الساسانيين اصبح لها مردوداً عكسياً لأن استيطان هذه القبائل شكل اساساً لهجرات عربية اخرى إلى فارس وكرمان ومكران. وكانت هذه الهجرات متصلة وذات سمة سلمية.

ومن أبرز الهجرات العربية إلى الساحل الشرقي للخليج هي هجرة آل عمارة من الازد وهم اولاد الجلندى الذين سيطروا على مساحة واسعة من ساحل الخليج الشرقي قبل الاسلام واستمر نفوذهم حتى القرن الرابع الهجري. وكانوا يحمون الخليج ويؤمنون طرق الملاحة فيه ويفرضون ضريبة على سفنه.

ومن الازد الذين انتقلوا إلى الساحل الشرقي وسكنوا فارس بنو قيس وآل الصفاق الذين اشار ابن دريد ان لهم عدداً ورياسة وشرفاً بفارس كما انتقل إلى فارس من عمان بطون من بني سامة بن لؤي. وسكن بنو سليمة كرمان قبل الاسلام. واستمرت هجرات القبائل الى الساحل الشرقي خلال العصور الاسلامية وكلما زاد اضطراب عمان او البحرين كلما زادت الهجرة.

وقد تلقب بعض شيوخ العرب في فارس بلقب الملك فكان آل ابي زهير من بني سامة «ملوك سيف بني زهير ولهم منعة وعدد» ولا شك فان هذا اللقب يدل على النفوذ الواسع الذي تمتع به العرب في السواحل الشرقية للخليج قبل الاسلام وبعده.

وهكذا فان سياسة المتوكل الدينية كانت نتيجة طبيعية للظروف السياسية التي كان عليه أن يعيش في خضمها ونحن نعتقد بأن المستشرق ميور بالغ حين صوره في صورة الخليفة الظالم المتزمت ذي الافق الضيق. لقد كان الخليفة المتوكل ابن بيئة وكانت سياسته محاولة جريئة لا تخلو من أخطاء لإنقاذ الخلافة العباسية من أزمتها.

ثانياً ـ سياسة العباسيين الاوائل الخليجية:

إن أهمية الخليج العربي والسواحل المحيطة به زادت بعد إنتقال مركز الخلافة في العصر العباسي من الشام إلى العراق. والواقع فإن هذا الإنتقال لم يكن عفوياً أو إعتباطياً ذلك لإن كل البوادر كانت تشير إلى انتقال الأهمية التجارية من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج العربي والطرق البحرية والبرية الواصلة إليه والمتفرعة منه.

هذا من جهة ومن جهة أخرىٰ فإن العصر شهد إزدهاراً زراعياً في بلاد السواد والأقاليم الشرقية في الوقت الذي أضمحلت الأقاليم الغربية زراعياً. إن هذه الظاهرة كانت هي الأخرىٰ دافعاً للعباسيين إلى الأهتمام بالخليج العربي لتأمين طرق التجارة الدولية وضمان سيطرة الدولة القوية ببسط نفوذها على مناطق الخليج.

العراق:

ففي العراق الأقليم المركزي عززت الخلافة سيطرتها القوية لضمان الأمن والأستقرار الضرورين لأي ازدهار اقتصادي. وضربت الخلافة بيد قوية الإضطرابات السياسية التي وقعت في السواد، كما أشرنا إلى ذلك من قبل حين حللنا الوضع السياسي للخلافة العباسية. ولا بدَّ أن نعيد إلى الأذهان هنا بأن أخطر حركتين واجهتها الخلافة العباسية في هذه الفترة المبكرة هما حركتا ابراهيم بن عبدالله الحسني بالبصرة والزط (السيابجة) في سواد العراق.

أما ابراهيم الحسني فقد أستولىٰ على البصرة في رمضان ١٤٥ هـ / ٧٦٢ م ورفع البياض شعاراً له وأيده العديد من فقهاء البصرة وعلمائها وبعض المعتزلة والزيرية وامتد نفوذه الى واسط ثم الأهواز. ورغم كثرة عدد أتباعه فإن ابراهيم الحسني لم ينجح في قيادتهم واستطاع حميد بن قحطبة الطائي وعيسىٰ بن موسىٰ أن يقتلاه في معركة حامية في موقع باخمرا في نفس السنة.

أما الزط وهم عناصر هندية هاجرت إلى مناطق الخليج واستقرت فيها[١] فقد ثاروا في أواخر عهد المعتصم سنة ٢١٩ هـ / سنة ٨٣٥ م ثورة عارمة في منطقة كسكر في منطقة البطيحة قرب واسط حتىٰ إن أحد أنهر المنطقة سمي نهر الزط نسبة اليهم. إن ثورتهم هذه لم تقتصر على البطيحة بل امتدت إلى الاحواز وكرمان وفارس فهاجموا القرىٰ وسلبوا الغلات[٢] وقطعوا طريق التجارة عبر البصرة ـ واسط ـ بغداد. وبهذا هددوا إقتصاديات الخلافة العباسية وأمن طرق الخليج التجارية.

ويبدو أن أمرهم غدا أكثر خطورة حين نظموا أنفسهم تحت قيادة محمد بن عثمان والقائد سملق وهزموا الجيش العباسي بقيادة أحمد بن سعيد. ولم يلبث المعتصم أن وجه اليهم جيشاً جديداً بقيادة عجيف بن عنبسة العربي الذي شتت شملهم وأسر أعداداً كبيرة منهم في منطقة البطيحة. وقد نقلت الخلافة الزط الى الحدود الشمالية مع البزنطيين وأسكنتهم هناك.

الاحواز

أما إقليم الاحواز فلقد تعرض لنفس الإضطرابات التي تعرض لها السواد فقد أشرنا إلى أن حركة العلويين بقيادة ابراهيم الحسني وحركة الزط شملت الاحواز إضافة الى البطيحة. والمعروف أن الاحواز في صدر الاسلام كانت

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٦٢، ٧٢٣ وما بعدها. وللزط تسمية اخرىٰ في منطقة الخليج هي (الزطوط).

(٢) الطبري، جـ ١٠ ص ٢٥٧

إدارياً تابعة لولاية البصرة. غير إن الاحواز قسمت بدورها إلى ست مناطق تولى كلا منها عامل. وليس هناك ما يدل على تغير وضع الاحواز الاداري في العصر العباسي الأول.

البحرين:

أما إقليم البحرين في هذه الفترة المبكرة من العصر العباسي فيبدو أكثر استقراراً من العصر الأموي حيث كانت البحرين مسرحاً نشطاً لحركات الخوارج. ولا شك أن البحرين كمركز تجاري أخذت بالاضمحلال التدريجي بعد إنشاء البصرة التي أخذت مكانها. كما وأن البصرة أصبحت كذلك بديلة البحرين كقاعدة للفتوحات الاسلامية في بلاد فارس[1].

إن قلة الاضطرابات السياسية في أوائل العصر العباسي لا يعني موالاة القبائل العربية في البحرين لسلطة الخلافة العباسية حيث يبدو أن قبائل عبدالقيس ظلت بعيدة عن أي سلطان يفرض عليها. ولكن يلاحظ إن العباسيين تقربوا من الأزد في البحرين وأعتمدوا عليهم في تأمين الساحل. ولا ريب فإن عدم الإتفاق بين عبدالقيس والأزد في البحرين لم يكن وليد الساعة بل له جذور قديمة تعود الى العصر الأموي كما أشرنا الى ذلك من قبل.

الأباضية بعمان:

أما أقليم عمان فقد شهد منعطفاً سياسياً مهماً في تاريخه حيث تأسست الامامة الأباضية الأولى بعمان سنة ١٣٢ هـ / ٧٤٨ م وتلتها الامامة الأباضية الثانية ١٧٧ هـ / ٧٩١ م حيث تخللت الفترة بين الامامتين محاولات بذلها العباسيون لإعادة سيطرتهم على عمان.

---

(١) عبدالرحمن النجم، البحرين من صدر الاسلام، ١٣٦ - ١٣٧

الفصل الخامس

الخليج العربي في العصور العباسيّة المتأخّرة

حتى سنة ٦٥٦ هـ.

١٢٥٨ م

اولاً - الأوضاع السياسية العامة في العراق خلال الفترة

يمكننا، تاريخياً، تقسيم العصور التي مررت على العراق خلال الفترة المتأخرة من العصر العباسي إلى ثلاثة أقسام: فترة الفوضى العسكرية التركية وفترة التسلط البويهية ثم فترة السيطرة السلجوقية.

أ - فترة الفوضى العسكرية - السياسية: ٢٤٧ هـ/ ٨٦١ م - ٣٣٤ هـ/ ٩٤٦ م

اتفق المنتصر مع القادة الأتراك على قتل أبيه المتوكل ثم أجبر أخويه المعتز والمؤيد على التنازل عن الخلافة بناء على رغبة الأتراك كذلك[١].

ولكن المنتصر نفسه لم يستطع أن يحتفظ بالخلافة من ستة أشهر، فقد جرّده القادة من كل شيء؛ فأخذ يعلن سخطه وتبرمه ويهددهم بالقتل. يقول المسعودي: إنّ طبيبه الطيفوري سمّه بناءاً على طلب الأتراك الذين عزموا على التخلص منه قبل أن يتخلص منهم[٢].

---

(١) الطبري: تاريخ، جـ ١١، ص ٧٦، طبعة الحسينية. - ابن الاثير: الكامل في التاريخ، جـ ٧، ص ٣٨ فما بعد.

(٢) المسعودي: مروج الذهب، جـ ٤، ص ١٣٤.

وقد برز في أعقاب اغتيال الخليفة ثلاثة قادة عسكريين أتراك هم: بغا الكبير وبغا الصغير وأوتامش ومدني واحد هو أحمد بن الخصيب الذي كان وزير المنتصر، وكان متعاوناً مع القادة العسكريين ومنفّذاً لرغباتهم حيث دبّر أمر الإجتماع بعد مقتل المنتصر.

ولكن القادة الثلاثة لم يكونوا متفقين على شخص الخليفة الجديد[1]؛ فقد أجمعوا أول الأمر على ألاّ يولوا أحداً من أولاد المتوكل لئلاّ ينتقم منهم، وقرروا أن يولوا أحد أبناء المعتصم. ثم حدث الشقاق والتردد بعد أن ذُكر اسم أحمد بن المعتصم الذي كان يرى أنه أحق الناس بالخلافة قبل المتوكل وأنّ الأتراك حرموه منها. ولكن بغا الكبير أصرّ على هذا الاختيار قائلاً: «نجيء بمن نهابه ونفرّقه فنبقى معه، وإن جئنا بمن يخافنا حسد بعضنا بعضاً وقتلنا أنفسنا». وهكذا بويع المستعين بالله بالخلافة سنة ٢٤٨ هـ/٨٦٢ م الذي عيّن أوتامش وزيراً له. وبذلك تقلد منصب الوزارة قائد عسكري بعد أن كان بيد المدنيين.

تنازع القادة على السلطة:

لقد كان القائد بغا الكبير محقاً حين أراد أن يتولى خليفة قوي، حفاظاً على مصلحة الأتراك وتجنباً لتفكك وحدتهم، ولكن المستعين كان ضعيف الشخصية واقعاً تحت تأثير أُمه، قَدّمَ أوتامش وشاهك الخادم على سائر الناس[2]. وقد أدى ذلك إلى انشقاق وتصدع في جبهة الأتراك حيث أصبح وصيف وبغا ضد أوتامش، وانتهت المشادة بقتل أوتامش بموافقة المستعين

---

(١) الطبري: تاريخ، جـ ١١، ص ٨٢، طبعة الحسينية. ـ لقد اشترك ابن الخصيب هذا في اغتيال المتوكل كذلك؛ حيث أحضر القواد والجند وقرأ عليهم كتاباً من المنتصر يتهم فيه الفتح بن خاقان بقتل المتوكل ليوهم به الناس. ـ

الطبري: تاريخ، طبعة ليدن، جـ ٣، ص ١٤٥٢ فما بعد.

(٢) الطبري: تاريخ، جـ ١١، ص ٨٦، طبعة الحسينية.

كما ونهبت داره.

ولكن المستعين لم يسترجع سلطته بل حلّ قائد تركي جديد هو باغر محلّ أوتامش. على أنّ باغر كان ذا سجلٍ سابق في التآمر ضد الخلافة؛ حيث كان من رؤوس المؤامرة ضد المتوكل. ولكن كتلة وصيف وبغا كانت الأقوى هذه المرة أيضاً، وبذلك تخلصت من باغر وقتلته.

وقد استغلّ أهل بغداد هذه الأوضاع وهاجوا مطالبين باحترام الخليفة وعقدوا الاجتماعات نادوا فيها بالنفير[1]. ولكن الأتراك أخمدوا تحركهم وفضوا اجتماعهم. والواقع فقد رغب أهل بغداد من وراء هذه الانتفاضة أن تعود مدينتهم داراً للخلافة بعد أن نقلها المعتصم إلى سامراء. على أنّ الخليفة المستعين بعد أن يئس من إعادة سلطته هرب إلى بغداد سنة ٢٥١ هـ/ ٨٦٥ م، ومعه أنصاره من الأتراك وعلى رأسهم بغا. وقد حاول قادة الأتراك إعادته إلى سامراء لأنّ وجوده في العاصمة ضروري لكي يكسب حكمهم الشرعية؛ إلاّ أنه رفض وعندئذ بايعوا ابن عمه المعتز بالله. وقد صارت بغداد وتوابعها إلى جانب المستعين وسامراء مع المعتز، وبقيت الحرب دائرة بين الطرفين ولكن المستعين لم يصمد للأزمة؛ بسبب تخلي أمير العراق محمد بن عبدالله بن طاهر عنه على أثر نزاع نشب بين ابن طاهر وبين بغا، وكذلك للحصار الشديد الذي ضربه جُند سامراء على بغداد حيث منعوا الميرة عنها. فاضطر أن يخلع نفسه سنة ٢٥٢ هـ/٨٦٦ م ويرحل إلى واسط حيث قُتِلَ بعدئذ بتدبير من قادة سامراء وأحمد بن طولون الذي وعدوه بولاية واسط[2].

---

(١) الطبري: تاريخ، جـ ١١، ص ٨٢، طبعة القاهرة.

(٢) المقريزي: الخطط، جـ ١، ص ٣١٩. - هناك روايات تشير إلى أن المستعين استقدم إلى سامراء وقتل في الطريق اليها. - الخطيب: تاريخ بغداد، جـ ص ٤٨ - ٨٥. - اليعقوبي: تاريخ، طبعة ليدن، جـ ٢، ص ٦١٠.

ولا بد لنا هنا أن نقيّم وقفة المستعين والجهود التي بذلها في سبيل الوقوف ضد القادة الأتراك، فقد حصّن أسوار بغداد وحفر الخنادق حولها، وفُتحت السدود باتجاه سامراء لمنع وصول الجُند إلى بغداد؛ كما أصدر أوامره بحصار سامراء إقتصادياً، ونظم المدافعين عن المدينة من أهل بغداد وبعض الخُراسانية والعيارين. ولكن الخلاف بين بغا وابن طاهر وإحساس ابن طاهر بقوة كتلة المعتز دفعه إلى إجبار الخليفة على قبول شروط الصلح وإقناعه بالتنازل طائعاً أو مكرهاً[١].

أصبح المعتز خليفة وكان قد سبق له وتنازل عن ولاية العهد في عهد أخيه المنتصر وبتحريض الاتراك، إلاّ هؤلاء القادة عدلوا عن رأيهم الآن ورأوا فيه الشخص المناسب لهم في الظروف الحالية فجاءوا به إلى السلطة، إلاّ أنّ الثمن كان باهظاً حيث سيطر بايكباك (زعيم الأتراك) على الأمور مستنداً على خبرة الحسن بن مخلد بن الجراح[٢]. وكانت الكتلة المسيطرة من الجُند التركي هي كتلة وصيف وبغا اللذين تجاوزا كل حد في علاقتهما بالخليفة حتى إنّ المعتز كان يتمنى التخلص من بغا.

وتتلخص محاولات المعتز في التخلص من طغيان القادة العسكريين الأتراك بدعمه لِفرَق المغاربة والفرغانيين؛ حيث كانت الحساسيات مستعرّة بينهم حول السلطة والإمتيازات. كما وأنّ المعتز نجح في التخلص من بغا الذي اغتيل وأُحرقت جثته وصودرت أمواله بأمر الخليفة. كما وأنّ الخليفة منح القاتل مبلغاً كبيراً من المال[٣]. ولكن محاولات المعتز باءت بالفشل حين اصطدمت بالأزمة المالية، فالخليفة كان دون شك بحاجة إلى المال لكسب

---

(١) الطبري: تاريخ، جـ ١١، ص ١٣٧، طبعة الحسينية. ـ
المسعودي: مروج الذهب، جـ ٤، ص ١٠٧.

(٢) اليعقوبي: تاريخ، جـ ٢، ص ٦١٦.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١١، ص ١٤. ـ

الجُند والأتباع؛ بينما كانت الخزينة خاوية وعلى وشك الإفلاس. وكان الإنهيار المالي نتيجة طبيعية لسوء الإدارة وانشغال القادة العسكريين بتثبيت مراكزهم السياسية واستمرار الفِرَق العسكرية في التنازع والخلاف، فقلّت المحاصيل وتدهورت الزراعة والتجارة فقلّت واردات الدولة. وقد ثار الجُند مطالبين بأرزاقهم لأربعة أشهر؛ فأرسل الخليفة وصيفاً لتهدئتهم فنشبت مشادة انتهت بقتله. ولكن مشكلة الأرزاق استعصت فوحّدت بين الأتراك والفِرَق الأخرى من المغاربة والفرغانية الذين أصبحوا كتلة واحدة ضد الخليفة، وعندئذ استنجد الخليفة بأمّه (أم المعتز) ولكنها لم تنجده رغم كثرة ما عندها من مال.

وكانت نهاية المعتز مؤلمة تدلّ على طغيان الجُند وقادتهم وسوء أدبهم وسلوكهم، حيث سُحِلَ من رجله وضُرِبَ بالدبابيس فتمزقت ثيابه وأُوقف في الشمس؛ فكان يرفع رِجْلا ويضع أُخرى لشدة الحر ثم تنازل عن الخلافة بعد أن ضربوه ولطموه وقد مات في السجن[1]. كما استطاع الأتراك قتل الوزير أحمد بن إسرائيل وقتل زعيمَيْ فرقة المغاربة: محمد بن راشد ونصر بن سعيد[2].

محاولة جدّية للإصلاح:

لم يقبل المهتدي بالله أن يتسلم منصب الخلافة إلاّ بعد أن يتنازل عنها المعتز علناً[3]. وكانت هذه بداية طيّبة من الخليفة الجديد تدلّ على احترام

(١) الطبري: تاريخ، جـ ١١، ص ١٦٠ فما بعد. -

المسعودي: مروج الذهب، جـ ٤، ص ١٧٨. -

(٢) الطبري: تاريخ، جـ ١١، ص ١٥٠ - ١٦١. -

لم تكن علاقة المعتز بشخصيات البيت العباسي علاقة طيبة حيث سجن أخاه المؤيد ثم قتله حين وصل إلى سمعه أن الأتراك يعتزمون بيعته. كما نفى الموفق إلى البصرة ثم الحجاز..

(المسعودي: مروج الذهب، جـ ٤، ص ١٧٦).

(٣) المسعودي: مروج الذهب، جـ ٤، ص ١٧٨.

هيبة الخلافة وشرعية السلطة. كما وأنّ المهتدي أراد أن تكون بيعته موافقة للتقليد السائد دون أن يكون للقادة الأتراك فضل في تنصيبه. وهذا يعكس بطبيعة الحال خُطط الخليفة لجعل الخلافة قوة فعّالة غير واقعةٍ تحت نفوذ الطغمة العسكرية.

فلقد أدرك المهتدي بأنّ ضعف مؤسسة الخلافة يكمن في وجود حفنة من القادة العسكريين الطموحين الذين يمثلون كتلاً عسكرية متنازعة، وأنّ السبيل لإنقاذ الخلافة هو التخلص منهم والحد من نفوذهم السياسي. وقد برزت في الآونة الأخيرة ظاهرة جديدة في الجيش؛ حيث حقد الجُند وضباطه الصغار على القادة الكبار حين أدرك هؤلاء بأنّ القادة ذوي المراتب إنما يستغلّونهم للحصول على امتيازاتٍ وأموالٍ ومناصبَ لهم دون أن يصيب منها الجندي العادي أو الضابط الصغير شيئاً. وقد ثار الجُند في سامراء ورفعوا شكواهم للخليفة، وثار الجُند في بغداد متذمرين من واليها الذي امتنع عن دفع أعطياتهم. وهكذا أعطى الجُند فرصة طيّبة للخليفة لكي يضرب ضربته ويتخلص من القادة ويستعيد مكانته، خاصة وأنّ هؤلاء الجُند تعهدوا بحماية الخليفة وقتل كل من يعترض على إجراءاته[1].

لم يستغلّ المهتدي الجُند ولم ينجح في استقطابهم تحت زعامته، بل رأى من الأصْوَب ضرب القادة الأتراك بعضهم ببعض واتباع سياسة التحريض والإغراء. فاتصل بالقائد بايكباك وأغراه بالامتيازات إن هو قتل موسى بن بغا ومفلحاً وغيرهم، ولكن بايكباك أدرك نوايا الخليفة وأخبر جماعته بالأمر، وعندئذ تحول النزاع إلى معارضة علنية أبرز سماتها الطعن بالخليفة وإجراءاته وسياسته، وقد استطاع الخليفة قتل بايكباك وتخلص من خطره. كما تقرّب من رجال الدين ليضفي على خلافته صبغة دينية قوية، وليكونوا

---

(١) الطبري: تاريخ، جـ ١١، ص ١٩٤ فما بعد. ـ

ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ٧، ص ٧٩ ـ ٨١.

له سنداً في محنته تجاه القادة العسكريين؛ كما لا يُنكر أنّ لرجال الدين تأثيراً كبيراً على العامة، ومن المحتمل أن يستشيروا العامة ويحضوهم لنصرة الخليفة. واهتم المهتدي بتقوية فرقة (الأبناء) وجمع حوله فِرَقَ المغاربة والفراغنة وبعض الجُند الأتراك المتذمرين[1].

كما قابل المهتدي شغب الأتراك بكل جرأة؛ حيث استدعى موسى بن بغا وأصحابه وعنّفه وأنذره قائلاً: «والله لئن سقط من شعري شعرةٌ ليهلكنّ بدلها منكم أو ليذهبنّ بها أكثركم. أمَا دين؟ أمَا حياء؟ أمَا تستحيَون؟ كم هذا الإقدام على الخلفاء والجرأة على الله عز وجلّ وأنتم لا تبصرون»[2].

ولكن الأتراك استمروا في جشعهم ومؤامراتهم مما اضطر الخليفة إلى إعلان النفير العام مبيحاً دماء الأتراك وأموالهم رافعاً شعار: «يا معشر الناس أنصروا خليفتكم». ولكن العامة خافت الجُند فتخاذلت عن القتال؛ كما انسحب الجُند الأتراك من جانبه وانضموا إلى أصحابهم مما أدى إلى اندحار المهتدي حيث أعلنوا خلعه قبل موته ومبايعة أحمد بن المتوكل الذي لُقّبَ بالمعتمد على الله سنة ٢٥٦ هـ/ ٨٧٠ م.

تُعتبر إجراءات المهتدي من أكثر الإجراءات السياسية والعسكرية جدية في سبيل استعادة هيبة الخلافة ومركزها. فقد كان إدارياً حازماً ابتعد عن مجالس الغناء والشراب والجواري، كما وأبعد السباع وكلاب الصيد عن البلاط[3]، مما يدلّ على محاولته الإصلاح والإنشغال بأمور الحكم المتدهورة.

---

(١) المسعودي: مروج الذهب، جـ ٤، ص ١٢٠. يقول اليعقوبي عن المهتدي:

«وجلس للمظالم ووقع بخطه وقرب الفقهاء وكان يقول: يا بني هاشم دعوني حتى أسلك مسلك عمر بن عبدالعزيز، فأكون عليكم مثله في بني أمية، وتقلل في اللباس والفرش»

أنظر: مشاكلة الناس لزمانهم، ص ٦٤.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١١، ص ٢١. - قارن: الطبري، تاريخ، جـ ١١، ص ١٩٤.

(٣) الطبري: تاريخ، جـ ١١، ص ١٧١. - المسعودي: مروج الذهب، جـ ٤، =

وبدأ يسمع الظلامات ويصرّف أمور الدواوين بنفسه، ولكن الطغمة العسكرية لم تمهله كما وأنّ الأحوال بصورة عامة حيث وقعت أحداث وتطورات أشغلته ولم تكن في حسبانه. فقد فضح بايكباك خطته مما أدى إلى توحيد الأتراك لجهودهم ضده. كما وأنّ الإضطرابات في العراق (السواد) حيث وقعت ثورة الزنج، وفي الجزيرة حيث حركات الخوارج، وثورات القبائل في الشام وامتناعها عن دفع الضريبة للخليفة؛ كل ذلك منع الخليفة من تحقيق مأربه في إنهاء سيطرة العسكريين الأتراك.

على أنّ صمود المهتدي بوجه الجيش كان له نتائجه الإيجابية؛ حيث بدأت أول حركة منظمة تدعو إلى إعادة سلطان الخليفة العباسي، وقد بدأت هذه الحركة كما رأينا بين صفوف الجُند التركي نفسه، وبتحريض ومؤازرة الخليفة الذي يقف، ولأول مرة منذ عهد الواثق بقوة، أمام الطغمة العسكرية، حيث يشير الطبري أنه قال لهم:

« إنه بلغني ما أنتم عليه من أمري، ولست كمن تقدّمني مثل أحمد بن محمد (المستعين) ولا مثل ابن قبيحة (المعتز) ».

كما استطاع الأمير العباسي أبو أحمد الموفق فيما بعد؛ أن يسيطر على قيادة الجيش فعادت القيادة مرة أخرى للعباسيين، وعاد الأتراك - موالي ومصطنعين للخلافة كما كانوا في عهد المأمون والمعتصم والواثق.

ثم إنّ مركز الخلافة انتقل إلى بغداد وتعاقب على الحكم خلفاء يحكمون ويديرون مؤسسات الدولة ويموتون موتاً طبيعياً بعيداً عن الاضطهاد والتآمر. حيث أعقبت فترة التسع سنوات الحرجة فترة انتعشت فيها الخلافة حوالي أربعين سنة حكم فيها ثلاثة خلفاء فقد. كان من ابرز رجالها الموفق اخو الخليفة المعتمد ثم المعتضد.

= ص ١٢٤ - ١٣٠.

الخطيب: تاريخ بغداد، جـ ٣، ص ٣٤٧ - ٣٤٨. -

ولكن الضعف ما لبث ان عاد إلى الخلافة بعد سنة ٢٩٥/سنة ٩٠٨ وعاد زمام الامور للقادة العسكريين. وقد حاول الراضي أن ينقذ الخلافة ويتخلص من الأزمة المالية والادارية فابتدع منصب أمير الأمراء واختار له محمداً بن رائق. ولكن النظام الجديد لم ينجح بل زاد النزاع بين القادة العسكريين للاستئثار بالنفوذ حتى سقطت بغداد في أيدي البويهيين سنة ٣٣٤ هـ سنة ٩٤٦ م.

ب ـ فترة التسلط البويهي ٣٣٤/٩٤٦ ـ ٤٤٧/١٠٥٥

البويهيون سلالة ديلمية نشأت أصلاً في أقليم الديلم جنوبي بحر قزوين. وقد ظهر آل بوية علي والحسن وأحمد في البداية كجنود مقاتلين في جيوش أمراء الديلم وطبرستان حتىٰ أستطاع أكبرهم علي بن بوية أن يكون حاكماً على مقاطعة الكرج في أقليم الجبال ثم سيطر على فارس. كما إستطاع الحسن بن بويه أن يسيطر على الري. أما أحمد بن بويه الأبن الأصغر فإن الظروف السياسية جعلته يحقق نجاحاً أكبر من أخويه، حيث أستغل ظروف الفوضىٰ السياسية والادارية في بغداد فثبت نفوذه في الأحواز ومن هناك زحف نحو بغداد وأحتلها، وقد أعترف الخليفة العباسي المستكفي بالأمر الواقع ومنح أحمد بن بويه لقب (معز الدولة)[١].

وقد أستمرت سيطرة البهويهيين على مقدرات الخلافة العباسية أكثر من قرن من الزمان كانت العلاقة خلالها بين الخليفة العباسي والأمير البويهي في معظم الأحيان على أسوأ ما تكون. ولعل أشهر أمير بويهي هو عضد الدولة (٣٦٧ ـ ٣٧٢) الذي حقق نوعاً من الاستقرار النسبي والانعاش الاقتصادي والعمراني في العراق.

---

(١) د. عبدالعزيز الدوري، العصور العباسية المتأخرة، ص ٢٣٩. ـ كبير، البويهيون في العراق، (بالانكليزية)، ص ١ ـ ١٥. د. فاروق عمر، الخلافة العباسية في عصورها المتأخرة ص ١٥.

وقد واجه البويهيون صعوبات كثيرة في ادارتهم للعراق حيث كانت منطقة البطيحة في ثورة دائمة بقيادة عمران بن شاهين ضد الوجود البويهي. كما كانت قبائل السواد العربية شرقي دجلة وغربي الفرات لا تعترف في أحيان كثيرة بسلطة البويهيين. وواجه البويهيون مشاكل أخرىٰ في الأحواز والجزيرة الفراتية وعمان وكانت علاقتهم بين مد وجزر مع قرامطة البحرين وبلاد الشام.

جـ - فترة السيطرة السلجوقية ٤٤٧/١٠٥٥ - ٥٩٠ هـ/١١٩٣ م

ولم يختلف الأمر كثيراً في العراق حين حل السلاجقة محل البويهيين في السيطرة على شؤون الخلافة العباسية بدعوة من الخليفة العباسي القائم. على أن عصر السلاجقة العظام طغرلبك وألب أرسلان وملكشاه شهد إستقراراً للمؤسسات السياسية والادارية وأحياءاً للجهاد ضد البيزنطين وإنعاشاً لحركة إنشاء المدارس للرد على الزندقة والباطنية. وقد لعب الوزير نظام الملك دوراً مهماً في هذا الشأن.

أما العلاقة بين السلطان السلجوقي والخليفة العباسي فلم تكن لتختلف عن عصر التسلط البويهي إلا في بعض المظاهر الشكلية والمراسم الرمزية، أما عدا ذلك فقد بقي الخلفاء مسلوبي السلطة قليلي النفوذ.

لقد حاول بعض خلفاء هذه الفترة مثل المسترشد بالله والمقتفي لأمر الله أن يعيدوا للخلافة سلطتها فاصطدموا بالسلاطين السلاجقة وعملوا على إصلاح الوضع الاقتصادي إلا أن محاولاتهم لم يكتب لها النجاح.

وقد أستطاع الخليفة الناصر لدين الله العباسي إنهاء السيطرة السلجوقية سنة ٥٩٠ هـ ونجح في توسيع نفوذ الخلافة العباسية وجمع حوله العديد من أمراء الأطراف عن طريق التنظيم الذي ابتدعه (الفتوة). ولكن الخلفاء الذين جاءوا بعده كانوا ضعفاء ومعزولين تسيطر عليهم حفنة من الحاشية في البلاط. ولذلك كانوا دون مستوىٰ الأحداث التي من حولهم حيث الهجوم

الصليبي على فلسطين وبلاد الشام عموماً والهجوم المغولي على المشرق الاسلامي. بل إن بغداد نفسها سقطت بيد هولاكو المغولي سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م[١].

ثانياً ـ حركات وإنتفاضات العراق خلال الفترة:

شهد السواد (العراق الجنوبي) خلال العصور العباسية المتأخرة حركات خطرة عديدة. ففي النصف الثاني من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي إنفجرت حركة الزنج في السواد والبطيحة وأمتدت الى الاحواز. وكذلك قامت الحركة القرمطية الاسماعيلية في السواد. وطوال العصر البويهي تقريباً كان السواد مضطرباً بسبب ثورة القبائل العربية على الطرفين وتمرد عمران بن شاهين وإبنه في البطيحة. وسنتطرق فيما يلي الى هذه الحركات:

حركة الزنج:

الزنج جماعات من العبيد السود جلبوا بطرق متنوعة وفي أوقات مختلفة من أفريقيا الشرقية، واستُخدموا في أعمال أهمها إستصلاح أراضي السواد. وقد أختلف المؤرخون في موطنهم الأصلي؛ فذكر بعضهم الحبشة، وقال آخرون الصومال وزنجبار، ولكنهم يتفقون على أنهم من سواحل أفريقيا الشرقية[٢].

وقد عالج المؤرخون والجغرافيون الرواد موضوع الأفارقة السود فيما

---

(١) د. حسين أمين، العراق في العصر السلجوقي، ص ٢٨ فما بعد. ـ د. محمد صالح القزاز، الحياة السياسية في العراق، ص ٨٢ فما بعد. د. فاروق عمر، الخلافة العباسية ص ١١٩.

(٢) عبد العزيز الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ص ٧٦، بغداد ١٩٤٥.

أحمد علبي: ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد، ص ٧٥ فما بعد، بيروت ١٩٦١.

حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، جـ ٣، ص ٢٠٩.

T. Noeldeke, sketches from Eastern History, London 1892.

كتبوه في العصور الوسطى[١]. وتشير أقدم الروايات الى الأفارقة السود وتُسمّيهم: إما (حبش) أو (سودان). ومن الواضح أنّ الإصطلاح الأول يعني الأحباش سكان بلاد الحبشة والمناطق المجاورة لها. أما الإصطلاح الثاني فيعني الجنس الأسود عموماً جنوبي الصحراء الأفريقية الكبرى. وقد ظهرت إصطلاحات جديدة بعد توغل العرب في أفريقيا. فظهر اصطلاح (النوبة) ليعني سكان النوبة على سواحل النيل جنوبي مصر، أما (البجة) فهم السكان المحليون بين النيل والبحر الأحمر.

وكذلك ظهر إصطلاح الزنج[٢] ليشمل بصورة خاصة سكان أفريقيا الشرقية جنوبي الحبشة والذين يتكلمون لغة البانتو. على أنّ كلمة الزنج تُستعمل أحياناً لتعني الأفارقة السود عامة. والمعروف أنّ هؤلاء الزنج هم أقلّ أصناف العبيد إحتراماً على عكس الحبش؛ الذين يُعتبرون أكثر الأصناف منزلة وتقديراً.

وقد عالج الجاحظ في مقالة له عنوانها: « فخر السودان على البيضان »[٣] موضوع العبيد وخاصة الزنج ومكانتهم في المجتمع؛ مدافعاً عنهم مبرزاً فضائلهم، مؤكداً أنّ لون بشرتهم ليس إلاّ نتيجة للأحوال الطبيعية التي يعيشون فيها.

---

(١) لقد جمع المستشرقان الروسيان: ل. ي. Kubbel. و ف. ف. ماتثيف، المصادر العربية التي عن أفريقيا السوداء في العصور الوسطى، وأضافوا إليها ملاحظات وترجمة روسية للنصوص:

Kubbel and Matveev.. Arabskiye istoçniki VII-X (Moscoww-Ieningrad 1960);
Idem, Arabskiye Istoçniki, X-XII Vekov (1965).

(٢) كلمة غير معروفة الأصل تماماً، وربما كانت مقتبسة عن (زنك) الفارسية التي تعني الحبشة. ـ

أنظر: أحمد علبي، ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد، ص ٧٦.

(٣) الجاحظ: رسائل الجاحظ، في رسائل الجاحظ، جـ ١، ص ١٧٧ فما بعد، تحقيق عبدالسلام هارون ١٩٦٤.

لم تكن حركة الزنج العارمة التي أُعلنت سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٩ م - ٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م، هي أولى حركات الزنوج في المجتمع الإسلامي؛ فقد قامت قبلها إنتفاضات محدودة؛ منها: ما حدث في أيام مصعب بن الزبير سنة ٧٠ هـ / ٦٨٩ م، حيث عصى الزنج بفُرات البصرة، وخرج الزنج كذلك في ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي على العراق سنة ٧٥ هـ / ٦٩٤ م، في المنطقة نفسها[١]. وتمرّد الزنج في البصرة وحواليها في خلافة المنصور العباسي[٢].

أما حركة الزنج سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٩ م، فقد قام بها الرقيق المستخدمون في استصلاح الأراضي وجعلها صالحة للزراعة عن طريق كسح السباخ والأملاح المجتمعة في طائح العراق الجنوبي، وانضم إليهم العبيد من القرى والمدن المجاورة[٣].

وكان عدد هؤلاء العبيد كبيراً، ويعملون على شكل جماعات دون أجور يومية؛ بينما لا يتعدى قوت يومهم قليلاً من الطحين والتمر والسويق. وقد أدرك عليّ بن محمد الذي لم يكن عبداً أسودَ سوء أوضاعهم الإجتماعية

---

(١) أحمد علبي: ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد، ص ١٠٧ - ١٠٨.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف، (مخطوطة).

(٣) عن ثورة الزنج أنظر:

T. Noeldeke, Orientalische Skizzen, Berlin 1892.

English trans. Sketches..., London-Edinburgh 1892. PP 146-75.

أحمد علبي: ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد، بيروت ١٩٦١،

A. Popovic, Ali b. Muhammad et La Revolte des esclaves a Basra, Paris 1965. (anunpublished French doctoral thesis)

G. Rotter, Die Stellung des Negres in der Islamische-Arabischen Gesellschaft bis Zum xvi Jahrhundert, Bonn 1967 (German doctoral thesis).

د. فاروق عمر، حركة الزنج، افاق عربية، ١٩٧٦.

والاقتصادية، لذلك حين خاطبهم منّاهم بالأموال والدور والعبيد وأن يرفع من مكانتهم.

وقد حاول بعض المؤرخين من قدامى ومحدثين أن يصبغ الحركة صبغة إشتراكية وأن يعطيها برنامجاً ثورياً منظماً، ولكن التناقض واضح في برنامج الحركة وفي الشعارات التي رفعها قائدها. فلم تكن حركته ثورة ضد العبودية والرق عامة؛ بل إنها كانت لفائدة مجموعة من العبيد الزنج الذين كما ذكرنا كان قد منّاهم بالتحرر وتملّك الرقيق!!

كان لا بد لصاحب الزنج من أن يتبرقع بثوب ديني مهدوي يُيَسّر طريقه بين الجماعات المتذمرة. فقد أدّعى هذا الرجل المغامر الطموح؛ العلم بالغيب وصفات النبوة، حيث أعلن أنه مرسل من الله لإنقاذ العبيد البائسين والمحرومين والبلوغ بهم إلى أعلى المراتب. ثم إنه أدعى الإنتساب الى عليّ بن أبي طالب حيث قال: إنه ينتسب إلى أحمد بن علي بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[١]. وقد دحض المؤرخون هذا النسب ولذلك يذكرونه دائماً بأنه: «دعي آل أبي طالب»[٢]، ونسبوه إلى قبيلة عبدالقيس؛ وقال آخرون: إنه فارسي الأصل.

ويعلل السيد علبي سبب إنتحاله العلوية الى أن العصر كان مؤاتياً للعلويين حيث قامت بعض الدويلات الشيعية العلوية المستقلة؛ منها: الصفارية في خراسان والزيدية في طبرستان[٣]، ولكن الذي يلاحظ بأنّ صاحب الزنج لم

---

(١) الطبري: تاريخ، جـ ٧، ص ٥٤٣.

(٢) اليعقوبي: تاريخ، جـ ٣، ص ٢٢٩. - المسعودي: مروج الذهب، جـ ٢، ص ٤٣٩.

(٣) ابن الطقطقي: الفخري، ص ١٨٣.

ويعتبره الملطي من الشيعة الزيدية، وهذا لا يعني إقرار الملطي بأن صاحب الزنج علوي؛ بل من أتباع الفرق الزيدية العلوية. (التبيه والرد على أهل الأهوار... ص ٣٨.

قارن، فيصل السامر: ثورة الزنج، ص ٦٥).

يدعُ الى خلافة علوية ولا تبنىَّ آراءً شيعية، بل على العكس فقد دعى إلى آراء أقرب ما تكون الى آراء الخوارج. ولذلك يمكن القول بأنّ إنتحاله العلوية كان يهدف الى كسب عطف العامة من الناس إليه؛ حيث كانت القضية العلوية تستقطب المعارضة للحكم القائم، ولكنه لم يبشّر بالآراء الشيعية التي تؤكد على الوراثة ولا تخلو من التعقيد الذي ينفر منه هؤلاء الزنوج، بل اعتبر الخلافة مؤسسة يتقلدها أفضل المسلمين بغض النظر عن عنصره وهو رأي الخوارج، ولا شك فإنّ بساطة هذا المبدأ وخلوِّه من التعقيدات التي لا تناسب الزنج؛ خاصة وأن إلمامهم بالعربية لم يكن إلماماً جيداً ثم إن البصرة نفسها لم تكن معروفة بميولها العلوية[١]، كل ذلك دعاه الى هذا الموقف. ولعل قسوته تجاه أعدائه ووضعه السيف في رقابهم واسترقاق نسائهم؛ هو الذي جعل بعض المؤرخين يصنفونه في صنف الأزارقة من الخوارج[٢].

إن هذا التناقض هو الذي جعل الأستاذ الدكتور الدوري يصفها بالتلون حسب الأوضاع السياسية والإجتماعية والإقتصادية. كما وأن السيد علبي يعتقد بأن صاحب الزنج لم يكن علوياً ولا خارجياً، بل أنه أخذ عن التيارات السياسية السائدة في عصره؛ فادعى شيئاً من مبادىء الخوارج ونسباً علوياً[٣].

ورفع عليّ بن محمد، شعاراً له الآية: «ان الله أشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويقُتلون وعداً عليه حقاً...». وقد أوّل صاحب الزنج هذه الآية تأويلاً سياسياً حيث قال: إن المؤمنين (أصحابه) وقد أشتروا أنفسهم فلم يعودوا بعد عرضة للرق والعبودية[٤]. كما وَوُصِمَ صاحب الزنج بصفات تدل على خروجه عن الدين

---

(١) الطبري: تاريخ، جـ ٧، ص ٦٠٤ فما بعد (طبعة القاهرة ١٩٣٩).

(٢) المسعودي: مروج الذهب، جـ ٤، ص ٢٠٨ فما بعد.

(٣) أحمد علبي: ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد، ص ٤٦ - ٤٧.

(٤) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، جـ ٣، ص ٢١٠ - ٢١١.

مثل: « الفاسق، وعدو الله، والخائن، والخبيث » ودعي الى « التوبة والإنابة الى الله »[١].

مراحل الحركة:

رغم التناقض الواضح في آراء صاحب الزنج؛ فقد إنضم الآلاف من العبيد حيث استهوتهم دعوته وكثر أتباعه، وانضم اليه عدا الزنج عبيد القرى والمدن والجنود السود في جيش الخلافة، وحتى الأعراب والخارجون على الدولة.

لقد أستطاع صاحب الزنج بين سنتيْ ٢٥٥ هـ - ٢٦١ هـ، أن يسيطر على البصرة وحواليها بعد تشتيته جيوش الخلافة العباسية. ثم أمتد نفوذه الى الأحواز وعبادان والأبله وواسط. وكانت سياسته العنف والإرهاب، ولذلك فقد ضرب المدن التي أحتلها وقتل الكثير من أهلها، ولعلّ ما حلّ بالبصرة على يده خير مثل لذلك، وقد أرّخ الشاعر ابن الرومي ما حل بالبصرة فقال[٢]:

لهف نفسي عليك يا فرضة البلـ ـدان لهفاً يبقى على الأعوام

ويقول:

أين ضوضاء ذلك الخلق فيها أين أسواقها ذوات الزمام
أين فلك فيها وفلك إليها منشآت في البحر كالأعلام

ويشير المسعودي إلى كثرة القتول فيقول: « أفنى من الناس من لا يدركه العدد ولا يقع في الإحصاء.. »[٣]، وقد حاول المهتدي أن يصدّ خطرهم الذي بات يهدد بغداد حاضرة الدولة؛ ثم تولى المعتمد الخلافة، فأرسل القائد

---

(١) أحمد علبي: المصدر السابق، ص ٤٧.

(٢) ديوان ابن الرومي، ص ٤٢٢.

(٣) المسعودي: مروج الذهب، جـ ٤، ص ٢٠٨.

التركي موسى بن بغا دون أن يحقق انتصاراً يذكر، وعندئذ تسلم القيادة أبو أحمد الموفق؛ وفي ذلك يقول الطبري:

« فلما رأى موسى بن بغا شدة الأمر وكثرة المتغلبين على نواحي المشرق وأنه لا قوام له بهم؛ سأل أن يعفى من أعمال المشرق، فأعفي منها؛ وضم ذلك إلى أبي أحمد . . . »[1].

وقد تسلّم الموفق القيادة بيد من حديد وصمم على إعادة هيبة الخلافة في المشرق والمغرب، وقد أستطاع أن يدحر جيش يعقوب بن الليث الصفار الذي سيطر على خراسان وجرجان والري وفارس، وأراد أن يضم العراق، ولكن الموفق هزمه فانسحب مندحراً الى الشرق. أما في الغرب فكان أحمد ابن طولون قد أسس إمارة وراثية في مصر ومد نفوذه الى بلاد الشام، على أنّ الموفق أستطاع أن يحدّ من نفوذه ويوقفه عند حده. بل أنه أستطاع أن يستميل أحد قواده المدعو لؤلؤاً في سوريا ويضمه إليه.

ولعلّ نجاح الموفق يكمن في استعماله القوة والدبلوماسية معاً، مما أدى الى إنضمام بعض قواد صاحب الزنج اليه حين سمعوا بمعاملته الحسنة، وهباته للأسرى من الزنج الذين يقعون في يد الموفق. وقد أستطاع الموفق أن يحتل مدينة الزنج الأولى (المنيعة) على مقربة من واسط بعد أن هزم جيش عليّ بن محمد وحرر أسرى العرب المسلمين وأسيراتهم، وقبل أن يتقدم نحو مدينة الزنج الثانية (المنصورة)؛ أمن خطوط مواصلاته وتأكد من سلامة سفنه وإمكانية وصول المؤن الى جيشه داخل الأهوار والمستنقعات وأحراشها، وعندئذ لم يجد الموفق صعوبة في إقتحام المنصورة رغم أن صاحب الزنج بنى حولها خمسة أسوار وأمام كل سور خندق زيادة في التحصين.

ثم اتجه الموفق إلى تحرير الأحواز من صنائع علي بن محمد وقد نجح في

---

(١) الطبري: تاريخ، جـ ٧، ص ٦٠٥ فما بعد.

ذلك، ثم ركّز جهوده لاقتحام عاصمة الزنج (المختارة)، وبعد أن أرسل الموفق رسالة إلى صاحب الزنج يدعوه فيها إلى التوبة وبسط له الأمان دون جدوى؛ قرّر الموفق الهجوم على المدينة حيث دارت معارك عنيفة استسلم خلالها بعض قواد الزنج مع أتباعهم، مما أضعف مركز علي بن محمد؛ حتى انتهت باحتلال المختارة وتدميرها ومقتل صاحب الزنج.

على أننا يجب أن نشير الى أنّ الموفق أبدى صبراً ومطاولة قبل أن يتمكن من القضاء على حركة الزنج؛ مما إضطره الى المكوث طويلاً إزاء المختارة وبناء معسكر دائمي له ولجيشه تحول الى مدينة سماها (الموفقية)، وكان عليه أن يؤمن خطوط مواصلاته ليكفل وصول المؤن اليه، وأن يدرّب جيشه على حرب العصابات في وسط صعب تكثر فيه المستنقعات والأحراش المائية، ويجهزه بالسفن والزوارق الخفيفة، كما كان عليه أن يضرب حصاراً إقتصادياً على المختارة وحواليها ليمنع وصول الأغذية إلى الزنج.

وقد واجه الموفق مشاكل عديدة أعاقته في حربه مع الزنج؛ ولكنها لم تثنه عن هدفه، ومن هذه المشاكل محاولة الخليفة الهرب الى أحمد بن طولون في مصر، ومحاولة يعقوب بن الليث الصفار الهجوم على العراق وخطر القرامطة. كما وأن الموفق كان قد أصيب بسهم أثناء إحدى الحملات ضد الزنج أقعده عن العمل مدة من الزمن. كل ذلك مد في عمر الحركة وأعاق جيش الخلافة عن العمل للقضاء عليها.

وقد لعبت عدة عوامل دورها في فشل الحركة ونجاح الخلافة العباسية في القضاء عليها؛ منها:

(١) تدابير الموفّق وطريقة معالجته للحركة باستعمال القوة والدبلوماسية والإغراء؛ مما جعل بعض أصحاب علي بن محمد ينضمون إليه، وقد ساعده هؤلاء كثيراً في التعرف الى مسالك الزنج وتحصيناتهم وأماكن مؤنهم.

(٢) إعلان الجهاد وتطوع الكثير من الأقاليم المختلفة لمساعدة جيش الحضرة؛ حيث ساعده مثلاً: جيش عامل الاحواز وجيش لؤلؤ قائد الشام الذي إنفصل عن أحمد بن طولون.[١]

(٣) فشل المحاولة للإتفاق بين صاحب الزنج والقرامطة. ويشير المستشرق نولدكه إلى عدم إمكانية الإتفاق فيقول: إن مذهب القرامطة مذهب إسماعيلي شيعي متطرف؛ بينما لم يُظهر علي بن محمد أية مبادىء شيعية، بل تظاهر بالدعوة إلى المذهب الخارجي[٢].

(٤) رفض يعقوب بن الليث الصفار العرض الذي تقدم به صاحب الزنج للتفاهم والإتفاق على حرب جيش الخلافة، بل إن الصفاريين كانوا يعتبرون الزنج مارقين[٣].

وبعد القضاء على الحركة أصدر الموفق منشوراً يعلن إنتهاء الإضطراب والفوضى في جنوبي العراق، ويدعو سكان هذه المناطق للرجوع إلى مدنهم وقراهم. وهكذا إستطاعت الخلافة العباسية وهي تمر بأضعف أدوارها أن تقضي على ثورة عنيفة؛ مما يدل على الإمكانيات الكبيرة التي لا زالت كامنة في مؤسّسة الخلافة، والتي يمكن أن تُستَغَلّ إذا وُجِدَ الخليفة المناسب القدير.

تقويم الحركة:

لقد حظيت حركة الزنج باهتمام كثير من المؤرخين المحدثين، وقد عدّها الكثير منهم محاولة جديدة من محاولات الزنج في العراق الجنوبي للحصول على حقوقهم الإقتصادية والإجتماعية.

---

(١) فيصل السامر: ثورة الزنج، ص ١٥٢.

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، جـ ٣، ص ٢١٠.

T. Noeldeke, op. cit, P. 154

(٣) عبدالعزيز الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ص ١٠٤ فما بعد.

ولكن المهم جداً لفهم طبيعة هذه الحركة ـ حركة علي بن محمد « صاحب الزنج » ـ الأخذ بنظر الإعتبار مواقف ومشاعر جميع العناصر التي شاركت في حركته هذه. وسنلاحظ بأن طموحات قائد الحركة علي بن محمد تختلف عن طموحات أركان قيادته والدعامة الرئيسية في حركته، ذلك أنّ جلُهّم من العرب من آل المهلب وآل همدان وغيرهم. ثم إن الزنج المعدمين والعرب الضعفاء والنبط المتنقلين؛ يسارعون للإنضمام إلى أية حركة متى توفر لها القائد المناسب الذي يثير الهمم ويذكي العزائم، ودافعهم في ذلك الحصول على الغنائم الكثيرة عن طريق السلب والنهب، والتخلص من العمل الشاق المضني تحت رقابة الأسياد ثم تحدي السلطة المركزية. وهم بعد ذلك كلّه لا يفتقدون شيئاً كثيراً إذا فشلت الحركة، وسيربحون أشياءً إذا ما حققت الحركة بعض النجاح؛ ولو كان هذا النجاح وقتياً... على أننا لا بد أن نؤكد بأن مسارعتهم لتأييد هذا القائد أو ذاك في تحديه لسلطة الدولة ليس لنفس الأسباب التي دفعت القائد المتمرد؛ بل لأسبابهم الخاصة بهم!!

أما عن شخصية قائد الحركة علي بن محمد « صاحب الزنج » فلا نعرف عنه الشيء الكثير؛ فقد أدّعى النسب العلوي، وقيل إنه ينتمي إلى قبيلة عبدالقيس أو إنه مولى فارسي، ولعلّ هذا الإختلاف في نسبه يدل على كونه شخصاً مغموراً غير معروف؛ كما وأنه هو نفسه حاول أن يحيط شخصيته بالغموض، فتبرقع بثوب (مهدوي) وادعى العِلْمَ بالغيب على غرار المختار بن أبي عبيد الثقفي. ويُخيّل إليّ أنّ صاحب الزنج كان يشبه المختار في كثير من صفاته؛ رغم أنه لا يقارن به في المنزلة الإجتماعية والسياسية. على أن الرجلين دون شك كانا يتشابهان في الطموح الكبير والنزعة الفردية غير الملتزمة والشجاعة الفائقة، يُضاف الى ذلك إدراك نافذ لطبيعة العصر، وتفهم للظروف التي ساعدته ليتطلع الى الزعامة السياسية... فإذا كان القادة الأتراك يبسطون سلطتهم على بغداد وسامراء وما حولها، ويعقوب الصفار يتحكم بالأقاليم الشرقية، والقرامطة يتوسعون في أقاليم الخليج العربي وغربي

السواد وبادية الشام، وأحمد بن طولون يستولي على مصر والشام؛ فلماذا لا يتحكم علي بـن محمد بالبصرة وسهولها الخصيبة. خاصة وأن الخلافة في شُغل شاغل عنه نتيجة صراعها مع القادة الأتراك، وأن هؤلاء الأخيرين مشغولين بالصراع فيما بينهم على السلطة....

إنها لفرصة مؤاتية ومناسبة... وقد استغلها عليّ بن محمد في هذه الفترة، كما استغلها المختار الثقفي قبله في الفترة الأموية واستغلها عمران بن شاهين بعده في العصر البويهي!!

عناصر الحركة:

لم يكن علي بن محمد زنجياً أسود؛ أي أنه لم يكن من العبيد السود؛ بل أنه كما تشير رواياتنا التاريخية كان رجلاً أبيض؛ فهو إذن لم يكن من «طبقة» الزنج بل على حد تعبير التفسير المادي للتاريخ «ثائراً على طبقته» منظماً لطبقة أخرى مكافحاً في سبيلها!!

أما أركان قيادته الرئيسيون فنلاحظ أنهم من آل المهلب ومن همدان وهم: علي بن أبان المهلبي، وإبراهيم بن جعفر الهمداني، ومحمد بن الحارث، ويحيى بن محمد البحراني.

وطبيعي أن هؤلاء العرب لا يقودون زنوجاً يعملون في استصلاح الأرض، ولا يعرفون حمل السلاح ليقارعوا بهم العرب من سكان المدن، وليجابهوا بهم جُند الخلافة من الترك؛ فهذا مستحيل إضافة الى كونه خطأً... إنّ هؤلاء الزعماء العرب يقودون أفراداً من قبائلهم وعشائرهم المتمرسين على الحرب والقتال... إن هؤلاء المهلبيين والهمدانيين هم الذين قارعوا جيوش الخلافة، وهم الذين هاجموا البصرة؛ وهم الذين فتحوا الأهواز؛ إضافة إلى الزنج بطبيعة الحال.

إضافة إلى هذه العشائر تشير مصادرنا إلى إنضمام العبيد (الأبّاق) الذين فروا من أسيادهم الى الحركة، وإلى انضمام الأعراب الساخطين. فقد ساعد

بعض الأعراب الزنج في الهجوم على البصرة. وفي سنة ٢٥٨ هـ، إنضم آل باهلة العرب في البطائح إلى الزنج. وفي سنة ٢٦٦ هـ، إنضم الأعراب الى حركة الزنج بعد أن نهبوا كسوة الكعبة. وقد ساعدت قرىً عديدة صاحب الزنج وأمدّوه بالميرة والقوت خوفاً أو طمعاً أو تحاشياً لخطره.

كما إنضم إليه الزنج في جيش الخلافة، وهم فرقة (العبيد السود) في الجيش العباسي؛ خاصة في البداية حين مُنِيَ الجيش العباسي بهزائم متكررة وهذا مما زاد من قوة حركته.

عقيدة الحركة:

يقول ابن أبي الحديد: إنّ عليّ بن محمد تقلّب من نسب إلى آخر حسب ظروفه؛ فادّعى أنه ينتسب إلى يحيى بن زيد ثم إلى عيسى بن زيد.

ولا شك فإنّ ادعاء النسب العلوي كان «تكتيكاً» يستعمله المغامرون وطلاب السلطة في ذلك العصر؛ ذلك لأنّ المعارضة العلوية كانت البديل للسلطة العباسية، وهي بذلك تستقطب مختلف الجماعات المتذمرة والمعارضة وتهدف إلى كسب العامة من الناس إليه.

كل ذلك يدلّ على إدراكه لمفاهيم العصر الذي عاش فيه وينسجم مع ما تَبَنّاه من لقب مهدوي؛ ذلك اللقب الذي يعمل عمل السحر على الضعفاء من المحرومين من الناس. ولكن التناقض البارز في عقيدة الحركة؛ أنّ صاحبها رغم انتحاله العلوية لم يدعُ إلى خلافة علوية، ولا تبنى آراءً شيعية بل على العكس؛ فقد دعى إلى آراء أقرب ما تكون إلى آراء الخوارج، فقد رفع شعار «لا حُكم إلاّ لله» وهو شعار خارجي معروف إضافة إلى تبنّيه الآية المفضّلة لدى الخوارج حيث نقشها على نقوده:

«إنّ اللهَ اشْتَرَىَ مِنَ المُؤمِنِينَ أنْفُسهِمْ وأمْوَالِهِمْ بأنّ لَهُمْ الجَنّةَ يُقَاتِلُونَ في سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً...».

أما موقفه من الخلافة فكان على النقيض من موقف الشيعة العلوية التي تؤكد على الوراثة، ولا تخلو من التعقيد الذي ينفر منه الزنوج البسطاء، وينكره عرب البصرة والأهواز والمناطق المحيطة بها؛ حيث لم يُعرف عن هذه المناطق تشيّعها لآل عليّ أو للعقيدة الشيعية، بل أنّ صاحب الزنج اعتبر الخلافة مؤسّسة يتقلدها أفضل المسلمين بِغَضِّ النظر عن عنصره وهذا هو رأي الخوارج.

هذا إضافة إلى شدّته وقسوته تجاه أعداء حركته ووضعه السيف في رقابهم واسترقاق نسائهم وأطفالهم، كل ذلك جعل بعض المؤرخين لا يعدوه خارجياً فحسب؛ بل من الجناح المتطرف في الحركة الخارجية، وهم الأزارقة التي عاثت فساداً في عصر عبدالملك بن مروان في أقاليم خوزستان (الأحواز) وفارس وكرمان.

إنّ هذا التناقض في عقيدة الحركة بين علوية وخارجية، يفرغ الحركة من كل صفة عقائدية ويجعلها حركة مسلّحة ضد السلطة ليس إلاّ، وتجعل من عليّ بن محمد إنساناً طموحاً إلى السلطة يرى حوله كيانات سياسية تتكوّن على مرأى ومسمع من الخلافة في خُراسان ومصر وطبرستان والبحرين وعُمان، فلماذا لا يكون له نصيب من ذلك كلّه؟؟

هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى فإنّ صاحب الزنج لم يُشر في أيٍ من خطبه إلى عزمه على إلغاء نظام العبودية أو الرق، بل على العكس؛ فقد عامل أسرى الحرب معاملة الرقيق وبذلك أقرّ هذا النظام... وليس ذلك فحسب بل أنه وعد أتباعه بأن يجعلهم من ملاّكي العبيد والرقيق، وهكذا فقد أراد أن يحوّل الزنج من أرقاء إلى مالكين للرقيق، وأن يرفعهم إلى السلطة والثراء؛ ففي بداية حركته خطب في أتباعه قائلاً:

«... إنه يريد أن يرفع من أقدارهم ويملّكهم العبيد والأموال والمنازل ويبلغ بهم أعلى الأمور».

وهذا مما حدّد حركته لدرجة كبيرة وحصرها في فئة الزنج، وأبعد عنه الفئات الأخرى التي شاركت معه في الحركة، وعلى رأسها زعماء من آل المهلّب وباهلة وهمدان وعرب من سهول البصرة ومن أهل القرى المجاورة. ولعلّ هذا هو السبب الذي دعا أهل البصرة رغم انقساماتهم للاتحاد ضده. كما وأنّ أهل القرى الذين أعانوه في أول الأمر أنقلبوا ضده وأغروا بعض أتباعه البارزين بالأموال؛ إن هو انشقّ على الحركة وأخمدها وأعاد العبيد إلى وضعهم السابق.

إذن أين هو البرنامج الإجتماعي والإقتصادي أو العقيدة السياسية في هذه الحركة؟ ولعلّ عدم وجود مثل هذا البرنامج هو الذي أفشل محاولات هذا المغامر «صاحب الزنج» إلى كسب القرامطة أو الصفاريين، وهم من أشد أعداء السلطة العباسية حينذاك.

لماذا طال أمد الحركة؟

لو كانت السلطة العباسية قوية متمكنة لما كان لهذه الحركة التي قام بها عليّ بن محمد ذلك النّفَس الطويل في المقارعة والمجابهة، ولكان مصيرها مصير أخواتها قبلها في عهدَيْ عبدالملك بن مروان الأموي وأبي جعفر المنصور العباسي... ولكن حال الخلافة كان قد تغيّر وتبدّل وغدا الخلفاء ضعفاء مسلوبي الإرادة يعتمدون على جيش من المرتزقة الأتراك لا يدين بالولاء لهم بل لقادته من الأتراك. كذلك لم يكن همّ هؤلاء القادة أن يبقى الخليفة العباسي أو أن تتوسع سلطته ونفوذه ليشملا كافة أنحاء الدولة، بل كان همّ القادة محصوراً في الوسائل التي تمكنهم من ضرب خصومهم ومنافسيهم والاستئثار بالسلطة والثروة أكبر فترة ممكنة. وطبيعي أنّ سكوت السلطة وانشغالها عن الحركة لا يعني قوّتها وعظم نفوذها!!

ثمّ إنّ الحركة وقعت في فرات البصرة وهي منطقة تغمر معظم أجزائها البطيحة وتتشعب فيها آلاف القنوات وتتشابك فيها الأدغال، وهذا وضع

يجعل حركة الجيوش النظامية ليست بالأمر الهين وتحتاج إلى وقت طويل لتعقبهم ومتابعتهم، هذا إذا كان هناك سلطة مركزية مهتمة في أمر إخمادهم، فكيف ومع تهاون هذه السلطة وإهمالها الأمر.

ومما زاد في قوة حركته أول الأمر تعاون أهل القرى في فرات البصرة معه، وإلى ذلك يشير نولدكه في مقالته «لولا مساعدة سكان القرى من الفلاحين لكان من الصعب إيجاد مؤونة لأتباع صاحب الزنج».

وكانت البصرة تعاني الانقسام بين الحزبين المناصرين «البلالية والسعدية» وحاول صاحب الزنج أن يجد منفذاً عن طريق جواسيسه لكسب أحدهما، ولكن أهل البصرة أدركوا الخطر فاتحدوا ضده ولكن بعد حين...

وليس أدلّ على جهل السلطة المركزية بالمنطقة من أنّ أولى نجداتها لقمع الحركة كانت من الخيالة الفرسان، وهذا يتنافى تماماً مع طبيعة المنطقة الكثيرة المياه والأدغال!!

لم يحتلّ صاحب الزنج البصرة احتلالاً دائمياً أبداً لأنه يدرك أنه لا يقدر على ذلك؛ بل كان يستعمل المباغتة والسلب والنهب والإحراق ثم ينسحب نحو الأدغال ويعتصم وراء القنوات والمياه، وكانت غاراته تستهدف الحصول على المؤن والغنائم وتخويف سكان المناطق المجاورة.

وكان يعتمد أثناء الأزمات الحادة على قواده من العرب، وخاصة عليّ بن ابان المهلّبي ويحيى بن محمد.

وتسلم الموفق القيادة للمرة الأولى سنة ٢٥٨ هـ، ولكنه لم يستطع المواصلة لاضطراب الأوضاع في سامراء؛ ثم عاد فأخذها مرة ثانية سنة ٢٦١ هـ، ولكن هذه المرة كان عليه أن يواجه خطر يعقوب بن الليث الصفار الذي ناصب العباسيين العداء بصورة سافرة حتى قضى على خطره. وقد انتهز سليمان بن جامع أحد قادة الزنج الوضع فتوسع شمالاً باتجاه ميسان

ووصل إلى النعمانية وأحرقها حيث ساعدته قبائل عربية من منطقة البطيحة.

بعد سنة ٢٦٥ هـ، تحسن وضع السلطة العباسية؛ فتضرغ الموفق طلحة لقتال عليّ ابن محمد صاحب الزنج وحلفائه، ومنذ ذلك الوقت كانت العمليات العسكرية تسير في صالح السلطة العباسية... ولعلّ هذا يوضح بصورة لا تقبل الشك أنّ السلطة العباسية خلال السنين العشرة الأولى من قيام عليّ بن محمد وحلفائه بحركته؛ لم تستطع أن تتفرغ لقتالهم بل تركتهم يعيثون فساداً في سهول البصرة، وأرسلت قوات رمزية غير مُعدّة للقتال إلى البطيحة؛ كما واعتمدت على أهل البصرة في مجابهة هؤلاء الزنج، وهكذا كُتِبَ لهذه الحركة أن تبقى عشرة سنوات دون أن تجابَه بإجراءات جدية من قِبَلِ السلطة المتهاونة المشغولة.

ومن ٢٦٥ هـ - ٢٧٠ هـ/٨٨٣ م، استعمل الموفق كل ما لديه من وسائل حربية وخاصة السفن البحرية والنهرية لتعقب قوات الزنج وحلفائهم، وأدرك ضرورة التروي من أجل بلوغ الهدف؛ فلم يكن يحط قدماً دون أن يتثبت من رسوخ قدمه الأولى، وكانت النهاية في صالح الموفق وفشلت الحركة.

ونعود إلى الحديث عن عقيدة الحركة فنتساءل... إذن أين البرنامج الإقتصادي - الإجتماعي الشامل لحركة الزنج أمام هذا التناقض في العقيدة والهدف. وإذا كان بعض الكتّاب ينعتونها بلقب «ثورة» فما هو تعريف الثورة إذن؟

إننا نعتقد بأنّ الثورة هي كل حركة موافقة لسير التاريخ ولمصلحة الفئة التي قامت الثورة من أجلها. فهل كانت حركة الزنج موافقة لسير التاريخ؟ وأين مصلحة الزنج من نقائض المباديء والأهداف التي عمل صاحب الزنج على بثّها أو تحقيقها من أجل مغامرة شخصية تجلب له السلطة والنفوذ.

بدايات الحركة القرمطية:

اختلف المؤرخون في تفسير إصطلاح «القرامطة» ويغلب على الظن أنّ قرمط كانت لقباً لحمدان بن الأشعث زعيم قرامطة العراق الجنوبي. ومعناها في أصلها النبطي «أحمر العينين»[١]، وترتبط الحركة القرمطية بالحركة الإسماعيلية في تنظيمها وعقيدتها؛ بل يعتبرها بعض المؤرخين جزءاً من الحركة الإسماعيلية العامة. فقد استطاع إسماعيل بن جعفر الصادق أن يجمع حوله الأتباع، وحين توفي انقسم أتباعه إلى جماعتين: الأولى قالت بغيبته وأنه لم يمت وهو القائم. والثانية نقلت الإمامة من بعده إلى ابنه محمد، وهذه هي المباركية نسبة إلى المبارك مولى إسماعيل. وقد انبثق القرامطة من هذه الفرقة المباركية[٢].

وقد استطاع عبدالله بن ميمون القداح، أحد رؤوس الدعاة الإسماعيلية حيث كان أبوه من تلاميذ أبي الخطاب مؤسس الحركة الإسماعيلية الملتفة حول إسماعيل بن جعفر الصادق؛ استطاع عبدالله هذا أن يكسب إليه حمدان

---

(١) M. J. De Goeje, Memoire sur Les Cormathes du Bahrain et Les Fa timides, Leiden 1892.

حول مناقشة المصادر عن القرامطة؛ أنظر: عارف تامر، ص ٩ - ١٣.

عبدالعزيز الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ص ١٣١.

de Sacy, Expose de la Religion des Druzes, 2 vols, Paris 1838.

Gasanova, La Doctrine Secrete des Fatimides D. Egypte, Caire 1910.

B. Lewis, The Origins of Ismailism, Gambridge 1940.

Ivanov, The Rise of the Fatimids, Calcutta, 1942.

B. Lewis, The Origins.., P. 41

(٢) النوبختي: فرق الشيعة، ص ٦٨ فما بعد.

الشهرستاني: الملل والنحل، جـ ١، ص ٣٣٥.

مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الإسماعيلية، ص ١١ فما بعد، طبعة دمشق.

ابن الأشعث الملقب « قرمط » من أهالي أحد القرى المجاورة للكوفة . فأخذ حمدان « قرمط » يدعو الناس إلى الحركة وكان أكثر من أجابه الفلاحين في منطقة السواد ، ولذلك كانت الدولة لا تستطيع أن تقسو على حركة القرامطة خوفاً من هرب أو إبادة الفلاحين الذين تعتمد عليهم الزراعة وبعض الصناعات اليدوية [١] . ويرى الغزالي [٢] : أنّ المبادىء الباطنية وجدت لها أرضاً خصبة بين العوام والجهلة من الناس الذين لا يفهمون الشريعة والمحرومين من الفلاحين والعمال . كما انضمت إلى الحركة القرمطية قبائل العراق (السواد) وبادية الشام [٣] . ورفع القرامطة شعارات انقاذ جماهير الناس من وضعهم السيء ووضع ثروة أسيادهم بيدهم . ويقول إبن الجوزي على لسان أحد دعاتهم :

« أمرت أن أدعو أهل [هذه القرية] من الجهل إلى العلم ، ومن الضلال إلى الهدى ، ومن الشقاوة إلى السعادة ، وأستنقذهم من ورطات الذل والفقر ، وأملكهم مالاً يستغنون به من التعب والكد » [٤] .

وقرر حمدان إعطاء الفرد حسب حاجته من المال . وقد تظاهرت الحركة بالتشيّع للعلويين باعتبار المعارضة العلوية حركة معارضة للنظام العباسي الذي يمثّل الخلافة الإسلامية ، ولكن غاية القرامطة النهائية كانت الخروج على النظام السائد وإحلال نظام جديد بدله .

وقد شملت الحركة القرمطية أجزاءاً عديدة من الدولة ، فعدا جنوبي العراق وبادية الشام ، انتشرت الحركة في اليمن سنة ٢٦٦ هـ/٨٧٩ م ، على

---

(١) الطبري : تاريخ ، جـ ١١ ، ص ٣٧٠ (المطبعة الحسينية) .

(٢) الغزالي : فضائح الباطنية ، ص ٥٣ .

(٣) De Sacy, P. 170.

(٤) ابن الجوزي : المنتظم ، جـ ٥ ، ص ١١٣ . - De Sacy p. 168

يد ابن حوشب، وفي جنوبي فارس والبحرين على يد أبي سعيد الجنابي[1].

وحين بدأت الحركة القرمطية في العراق في عهد المعتمد؛ لم تستطع الدولة مجابهة فعالياتها بسبب إنشغالها بحركة الزنج وتمرّد يعقوب الصفار وأحمد بن طولون. وقد بدأت القرامطة بالتسلح إبتداءاً من سنة ٢٧٦ هـ/٨٨٩ م، حيث كانت أخبار تحركاتهم المسلحة وصداماتهم الإرهابية تصل إلى مسمع السلطة. ولكن حمدان وصهره عبدان حاولا الإنفصال عن الإسماعيلية فقُتلا، وبرز زعيم جديد يدعى (زكرويه) الذي أبدى ولاءاً كبيراً للإسماعيلية. وثار القرامطة عدة مرات في عهد المعتضد والمكتفي والمقتدر في العراق والشام والبحرين. وقد هاجموا القرى وقوافل الحجاج والمساجد كما هاجموا الكعبة ونهبوا الحجر الأسود سنة ٢٧٧ هـ/٨٩٠ م، ونقلوه إلى عُمان. كما هددوا بغداد عدة مرات لدرجة ان الوزير علي بن عيسى نصح الخليفة العباسي باللجوء الى خراسان إلى حين درء الخطر عن العاصمة. وقد نجح من القرامطة أبو سعيد الجنابي الذي استطاع أن يُؤسِسَ دولة طبّق فيها مباديء القرامطة[2].

وقد أدرك الخليفة العباسي المعتضد بالله امتداد خطرهم الذي بدأ يشمل

---

(١) عن ثورات القرامطة أنظر: -
محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ١، ص ٢٠٩ - ٢٣٠.
عبد الرزاق الحصان: المهدي والمهدوية، ص ٥٥ - ٧٣، بغداد ١٩٥٧.
فيصل السامر: الدولة الحمدانية، جـ ١، ص ٩١ - ٩٨.
حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، جـ ٣، ص ١٩٦ - ١٩٧.
بندلي جوزي: من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام، ص ١٥٩ - ٢١٧.
أحمد أمين: ظهر الإسلام، جـ ٤، ص ١٣٢ - ١٣٤.
عارف تامر: القرامطة، ص ١٠٠ - ١١٦.
محمد عليان: قرامطة العراق، ص ٧٦ وما بعدها.
محمود إسماعيل: الحركات السرية في الإسلام، ص ١٠٩ وما بعدها.

(٢) De Goeje, op. cit Leiden 1886.

سواحل الخليج العربي، كما أنهم هددوا إقليم الحجاز وقطعوا طرق مواصلاته مع العراق والبحرين.

وقد أرسل الخليفة قائداً من قواده وعيّنه والياً على البحرين؛ هو العباس الغنوي، وكانت مهمته حرب القرامطة ليس إلاّ. وفي نفس الوقت حصّن الخليفة البصرة وعزّز إمكاناتها العسكرية. وقد اصطدم الجيش العباسي بالقرامطة وخسر المعركة وقُتل وأُسر العديد من أفراده. ولكن الجنابي لم يقتل قائد الجيش بل أطلقه ومعه رسالة يتهدد فيها المعتضد، ولكن المعتضد صمّم على الإستمرار في المجابهة حيث تشير رواية تاريخية أنه قال:

« والله لئن طال بي العمر لأشخصنّ بنفسي إلى البصرة وجميع غلماني ولأجهّزنّ إليه جيشاً كثيفاً؛ فإن هزمهم خرجت في جميع قوّادي وجيشي إليه يحكم الله بيني وبينه ».

وقد تنبأ هذا الخليفة قبيل وفاته أنّ قلاقل واضطرابات ستأتي من ناحية الخليج العربي؛ فهو يذكّر قواده وحاشيته بأنه كان مصمماً على تأديب العصاة واستتباب الأمن في البحرين ويحذّرهم قائلاً:

« ... وإني أخاف أن يكون من هناك حوادث عظيمة ».

واستمر نشاط القرامطة في بادية الشام حيث هاجموا مدينة الرصافة سنة ٢٩٠ هـ، وحاصروا دمشق وأخذوا الضرائب من أهلها، واستولوا على حمص وضواحيها؛ وكانوا يفتكون بالناس دون تمييز. وقد استنجد سكان الشام بالعباسيين بعد أن لم ينجدهم الطولونيون؛ فقاد الخليفة المكتفي جيشاً وعسكر بالرقة وأرسل قواته بقيادة أبي الأغر إلى حلب، وفي معركة قرب حلب انتصر القرامطة. مما اضطر الخليفة إلى إرسال إمدادات جديدة استطاعت تشتيت شمل القرامطة وتراجعهم إلى الصحراء.

ولم يكن القرامطة كما رأينا، على وفاق دائم مع الإسماعيلية، ومن أسباب

الخلاف الزعامة والنزعة الفردية وحب الإستقلال عن الحركة العامة لدى بعض الزعماء الطموحين، ثم أنّ الخلاف برز حول الوسيلة التي توصل إلى الهدف؛ فكان القرامطة يؤمنون بالعنف والقوة، أما الإسماعيلية فأرادوا أن يطبّقوا سياسة المرونة والمساومة بدلاً من سياسة القوة. وحين زاد الخلاف وتأزمت الحالة حاول الحسن الأعصم القرمطي أن يستنجد بالخليفة المطيع العباسي ضد النفوذ الفاطمي المتوسع فرفض المطيع ذلك قائلاً:

« كلهم قرامطة وعلى دين واحد؛ فأما [الفاطميون] فأماتوا السُنّة وقتلوا العلماء، وأما هؤلاء فقتلوا الحجاج وقلعوا الحجر الأسود »[١]

هذا ورغم اعتبار بعض كتّاب الفِرَق القرامطة فرقة تسعى الي إرجاع سلطة الفُرس السياسية، إلاّ أننا لا نستطيع أن نتفق معهم، فالحركة القرمطية تختلف عن الحركة البابكية الخرمية أو الشعوبية او الزندقة في أهدافها رغم اشتراكها معهما في بعض مبادئها ثم إنّ الحركة القرمطية ضمّت إلى صفوفها العرب والنبط، وانضم إليها البدو من قبائل عربية عراقية وسورية. وكانت الأرستقراطية الإيرانية معارضة للقرامطة[٢]. كما وأنّ الحركة القرمطية لم يُكتب لها النجاح في إيران حيث لم تتركز في أقاليم خاصة هناك ولم تجذب إليها الأتباع. ويقول الأستاذ عارف تامر[٣]:

---

(١) محمد حلمي أحمد: الخلافة والدولة في العصر العباسي، ص ١٤١.

يقول المسعودي: أن القرامطة سلبوا الحجر الأسود سنة ٣١٧ هـ، وأعيد سنة ٣٣٩ هـ. (التنبيه والإشراف، ص ٣٤٦).

(٢) Barthold, Mussulman culture, Calcutta 1934. P. 72 ff

B. Lewis, The Islamic Guilds, E. H. R. 1937, pp 22, 100 ff

عبدالعزيز الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ص ١٧٩.

(٣) عارف تامر: القرامطة، ص ١٤٨ فما بعد. ـ لقد وجد للدعوة القرمطية أنصار في قلب =

« أنّ أنصار هذه الدعوة (القرمطي) كانوا أقلية إسماعيلية تعيش في وسط أكثرية ساحقة من السُنيين؛ أو ممن لا يدينون بالمذهب الإسماعيلي، ولهذا لم تستطع الدعوة أن تنجب دعاة محاربين يتصفون بصفات الدعاة الذين أنجبتهم الدعوة في العراق وسوريا واليمن والمغرب، بل كانت هذه الحركة تتجه إلى أساليب الإقناع العقلي والتأثير العلمي في المستجيبين عن طريق العلم الثقافة ».

فالحركة القرمطية توسلت ظاهرياً بالاسلام من أجل ضرب النظام العباسي الذي يستند على الإسلام، وإنشاء نظام يحقق على حد زعمهم المساواة الإجتماعية والرفاه المادي، وهذا ما سمّاه قرامطة السواد « نظام الألفة » حيث تجمع أموال المجتمع بيد الداعي ليشترك كل أفراد المجتمع في التمتع بها؛ حيث تسدّ حاجات الأفراد بحيث لا يبقى معوزٌ بينهم[١]. ولم يكن الشخص يمتلك أكثر من سلاحه فهو في غنى عن المال؛ لأن المفروض نظرياً على الأقل أن تكون الأرض له وحاجاته يوفرها له المجتمع كذلك[٢]. والغريب أن القرامطة رغم مناداتهم بهذه المباديء تقبلوا عبودية العبيد السود وكأنها شيء مسلم به تماماً.!!

ولجماعة القرامطة تنظيمات خاصة بها غايتها تحقيق أهداف الحركة بفاعلية ونجاح؛ فكانت مراتب الدعوة سبعاً لكل منها بلاغاً حسب رتبة الفرد في

= العاصمة بغداد كذلك؛ إلا أن عددهم كان قليلا. أنظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ ٨، ص ١٢٧. - بندلي جوزي: من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام، ص ٢٠٦. فاروق عمر، الخلافة العباسية.. ص ٥٤.

(١) De Sacy, op. cit., P. 189. B. Lewis, op, cit, pp. 97 f

(٢) عبدالعزيز الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ص ١٨١. - وفي وصية لعبدالله بن ميمون القداح لأحد الدعاة قال: « ... وأشير عليك ألا تظهر ما في نفسك للعرب ولا لمن يتعصب لهذا الدين، فإن هذا الدين قد غلب على الأديان كلها... وإنه نفسك والزم التشيع والبكاء على أهل البيت فإنك تجد من يساعدك من المسلمين، ويقول هذا هو الإسلام... ثم تعمل بعد ذلك في استئصال (الإسلام) » أنظر، محمد حلمي أحمد: الخلافة والدولة في العصر العباسي، ص ١٣٥.

البناء الهرمي، فالبلاغ الأول للعامة، والثاني لمن فوقهم قليلاً، والثالث لمن دخل في المذهب سنة؛ ثم يُعطى بعد ذلك بلاغاً كلما طال بقاءه سنة أخرى حتى يصل إلى الدرجة السابعة فيلتقي البلاغ السابع، والبلاغ الأخير يتضمن أسرار المذهب وحقائقه الأساسية.

وكان الدعاة على مرتبتين: الأولى المستجيب، والثانية المكاسر. فالداعي المستجيب وجب أن يكون ذكياً حسن المظهر قادراً على التأثير وجذب الأتباع؛ فإذا ما تمرس في الأمر وأظهر كفاءة ومقدرة تحول إلى مرتبة المكاسر؛ أي الذي يستطيع أن يكاسر حجج خصومه، ولذا وجب أن يكون عالماً بالدعوة متبحراً قادراً على منازلة شيوخ المذاهب الأخرى ومحاججتهم.

الصلة بين الإسماعيلية والقرامطة:

يرى ستيرن أنّ اصطلاح «الإسماعيلية» والاصطلاح «القرامطة» لهما معنىً واحد[1]، ولا يعتقد بأنهما فرقتان منفصلتان عن بعضهما البعض. والواقع أنّ غالبية المؤرخين يتفقون على أنّ حركة القرامطة؛ خاصة في البحرين والعراق وبلاد الشام تُعتبر جزءاً من الدعوة الإسماعيلية.

ولم يكن الإسماعيلية الأوائل يُسمّون بهذا الإسم، بل كان أعداؤهم المعاصرون لهم يُطلقون عليهم لقب باطنية أو قرامطة. أما هم فكانوا يُسمّون دعوتهم «الدعوة الهادية». أما اصطلاح الإسماعيلية فهو اصطلاح استعمله كُتّاب الفِرَق للدلالة على الفِرَق التي اعتقدت بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وإبنه محمد، كما دانت بآراء متطرفة مثل قدسية الإمام وألوهيته والتي نطلق عليها الخطابية، على أنّ هذه الفِرَق ظهرت في حياة إسماعيل وإبنه، ويعتقد المستشرق ستيرن بأنّ هناك ارتباطاً ضعيفاً بين هذه الفِرَق وبين الحركة الإسماعيلية التي لم تظهر إلاّ بعد حوالي القرن في منتصف القرن الثالث الهجري. وبهذا يخالف ستيرن النظرة التقليدية التي تعتقد بوجود علاقة تأريخية وثيقة بين الخطابية والإسماعيلية، ويدعم ستيرن فرضيّته بدليلين:

---

(1) Stern, Ismalis and Quarmations..., P, 99.

(١) في حوالي سنة ٢٦٠ هـ/٨٧٤ م، يظهر فجأة دعاة يجوبون الأقاليم الإسلامية يدعون الناس إلى مبادىء ثورية متطرفة. ففي سنة ٢٦١ هـ، تتركز منظمة سرّية إسماعيلية في جنوبي العراق بقيادة حمدان قرمط وعبدان، ثم تأسّسَت منظمة أُخرى بعد ذلك مباشرة في البحرين تحت زعامة أبي سعيد الجنابي، وفي اليمن بقيادة منصور اليمن وعلي بن الفضل، وباشر أبو عبدالله الشيعي فعالياته في المغرب سنة ٢٨٠ هـ/٨٩٣ م. وفي حوالي هذه الفترة قامت الدعوة الإسماعيلية في الرَيّ، وكانت الدعوة موجهة بصورة خاصة للفلاحين وسكان القرى في السواد، وللبدو في البحرين وللبربر في المغرب. أما في خُراسان فقد كانت الدعوة الإسماعيلية في نهاية القرن الثالث الهجري تعمل على كسب كبار الموظفين والأشراف ثم الأمراء السامانيين أنفسهم. إنّ هذه الدعوة المنظمة لا بد أن تكون موجهة بواسطة أيد سرّية تخطط بدقة، وهنا يظهر الإختلاف بين الإسماعيلية الأولى الخطابية والحركة الإسماعيلية الجديدة.

(٢) إنّ عقيدة الإسماعيلية المتأخرة تختلف تماماً عن عقيدة الفِرَق المتطرفة التي قبلها؛ فالإسماعيلية المتأخرة لم تعتقد بالتجسيد البشري لألوهية الإمام.

لقد كانت المنطقة الجنوبي من العراق إحدى المراكز الرئيسية للحركة الإسماعيلية الجديدة[١] التي سُمّيَتْ «بالقرمطية» نسبة إلى الداعية حمدان بن الأشعث الملقب «قرمط» الذي جذبته الدعوة الإسماعيلية حوالي سنة ٢٦٠ هـ، عن طريق أحد الدعاة الذي جاء إلى سواد العراق. وحين قويت الحركة وهددت السلطة العباسية في بغداد؛ انتشر هذا الإسم سُمّيَت بالحركة القرمطية، ليس في العراق وحده بل في الأقاليم الأخرى كذلك[٢].

ونحن حين نرغب في التعرف على عقيدة القرامطة في القرن الثالث

---

(١) أنظر: المصدر السابق، ص ١٠٠. ـ النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، جـ ٢، ص ٤٩٢.

(٢) W. Madelung, Fatimiden und Bahrain Qarmaten Der Islam, 1959, PP. 34 ff.

الهجري؛ علينا أن نتحرى المصادر المعاصرة، ذلك لأنّ عقائد متنوعة ومتأخرة نُسِبَتْ إلى الإسماعيلية الأولى وهي ليست منها. وفيما يتعلق بالإمامة تجابهنا ثلاث فرضيات حول الأئمة الإسماعيلية الذين اسسوا دولتهم في المغرب ثم مصر ثم توسعوا من بلاد الشام:

الأولى: الفرضية القائلة بأنهم من نسب الداعي ميمون القداح.

الثانية: الفرضية القائلة بأنّ الأئمة المستودعين كانوا من القداحين، وكان آخرهم عُبيدالله المهدي الذي سلّمها إلى القائم، وهو الإمام المستقر ومن النسب الفاطمي؛ وهي فرضية لويس.

الثالثة: فرضية إيفانوف الذي لا يعتقد بنظام الإمام المستودع والمستقر، ويعتقد أنّ الأئمة الإسماعيلية فاطميون.

على أنّ القرامطة توقفت عند محمد بن إسماعيل وانتظرت رجعته وقالت بمهديته. وقد حدث تطور جديد في الدعوة الإسماعلية حين توفي في النصف الاول من القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي - الداعية الاسماعيلي في سلمية وخلفه إبنه، وقد لاحظ حمدان وعبدان نبرة جديدة في رسائل الداعية الجديد؛ ولذلك أرسلوا رسولاً إلى سلمية الذي التقى بالداعية، وأخبره بأنّ فكرة مهدية محمد بن إسماعيل كانت مجرد شعار وقتي، وأنّ الحقيقة هي بأنّ الأئمة الإسماعيلية من نسل عبدالله بن ميمون القداح، ولكن زعماء قرامطة العراق لم يعترفوا بذلك؛ مما دعا الإمام القداحي إلى التخلص منهم، ولكن أبا سعيد الجنابي أخذ نفس الموقف الذي اتخذه قرامطة العراق. وهكذا انشقت الحركة على نفسها إلى جناحين: الأول اعتقد بوجود إمام ظاهر على رأس الجماعة، وهذا الجناح اعترف بالأئمة الإسماعيلية الذين كانوا على رأس الدولة الفاطمية. والثاني ظلّ متعلقاً بالإمام الغائب محمد بن إسماعيل، وقالوا بأنه القائم المنتظر، ومن هؤلاء قرامطة البحرين والعراق[1].

ولقد تطورت العلاقة بين القرامطة والإسماعيلية في مصر وبلاد الشام التي

---

(1) Stern, op. cit, PP. 106

تمثلت بالدولة الفاطمية بين مَدٍّ وجزر، ويشير ستيرن[1] إلى أنّ القرامطة ربما اعترفوا لفترة من الوقت بالخلفاء الفاطميين الإسماعيلية كزعماء سياسيين للحركة الإسماعيلية، وممهدين لظهور القائم محمد بن إسماعيل حتى ساءت العلاقة بين الطرفين في عهد المعز الفاطمي. هذا مع تقديرنا بأنّ العامل الحاسم في تقرير العلاقة بين كتلتين سياسيتين كانت غالباً المصالح؛ وليست العقائد بالدرجة الأولى.

إنّ الحركة الإسماعيلية تختلف عن الحركة الخطابية عقائدياً، ولا تربطها فيها روابط تاريخية متسلسلة ووثيقة. كما وأنّ المذهب الإسماعيلي الذي تبنّته الدولة الفاطمية كان أكثر اعتدالاً وتهذيباً عن الباطنية الإسماعيلية. أما القرامطة فقد انشقوا عن الحركة الإسماعيلية وخالفوها عقائدياً وسياسياً.

ومهما قيل في أثر الحركة القرمطية على المجتمع الإسلامي فإنها هاجمت الدين الإسلامي والسلطة العباسية، وأرادت قلب النظام الإجتماعي السائد.

حركة عثمان بن شاهين:

ثار عمران بن شاهين بالبطيحة وهي المنطقة الواقعة جنوبي العراق حيث الاهوار والمستنقعات التي تغذيها مياه النهرين وتوابعهما. وتقع البطيحة تقريباً بين واسط والبصرة وهي كثيرة النباتات وخاصة البردي مما جعل طرقها النهرية ضيقة ومن الصعب على جيش نظامي التوغل فيها.

ولا تعطينا مصادرنا التاريخية[2] معلومات كثيرة عن عمران بن شاهين ولكنه يبدو من المغامرين السياسيين الذين انتهزوا ضعف السلطة المركزية ومشاعر العداء للبويهيين فاراد ان يستقل بالبطيحة كما فعل قبله صاحب الزنج مثلاً.

لقد استطاع عمران ان يجمع حوله الاتباع من سكان البطيحة وما حولها، وتعاون معه البريديون حكام الاحواز حيث اعترفوا بسلطته على بعض مناطق

---

(1) Stern, op. cit, pp. 107

(٢) كبير، المصدر السابق، ص ١٠، ١٢

البطيحة وغربي الاحواز، مما زاد من نفوذ عمران، ويبدو ان عمران نجح بان يكون رمزاً لمقاومة سكان العراق للسيطرة البويهية.

كان اول صدام بين البويهيين وعمران سنة ٣٣٨ هـ ولكن صعوبة المنطقة ادت الى الحاق هزائم عديدة بالجيش البويهي مما جعل معز الدولة البويهي يفاوض عمران ويتفق معه على الاعتراف به والياً على البطيحة من قبل بغداد[١]. ورغم انتهاك عمران لشروط الصلح بمهاجمته للقوافل بين بغداد والاحواز فإن البويهيين لم يصطدموا به عسكريا، حيث جدد بختيار بن معز الدولة المعاهدة معه بعد ان فشل في اخضاعه. وبذلك ظل عمران بن شاهين حاكماً مطلقاً للبطيحة مدة عشرين عاماً تقريباً.

وبعد وفاة عمران سنة ٣٦٩ هـ تولى ابنه الحسن امر البطيحة. وقد انتهز هذه الفرصة عضد الدولة البويهي فأرسل جيشاً لاخضاع الحسن ولكن المحاولة فشلت مرة اخرى واضطر عضد الدولة الى عقد معاهدة جديدة مع الحسن اعترف بموجبها بالحسن أميراً على البطيحة مقابل ان يدفع هذا الاخير ضريبة سنوية معينة للبويهيين. وهكذا غدا معظم السواد اقليماً شبه مستقل عن بغداد وعن السيطرة البويهية[٢].

ثالثاً ـ الحالة السياسية في الاحواز:

من المعروف ان العصور العباسية المتأخرة شهدت تفكك الخلافة العباسية وضعفها وانفصال الاقاليم عن سلطة الخلافة المركزية في بغداد. ومنذ البداية جابه الخلفاء العباسيون مشاكل عديدة في المشرق الاسلامي. وبعد الحرب الاهلية بين الامين والمأمون بدأت الميول الانفصالية بالتعبير عن نفسها.

فقامت دويلات اقليمية في بلاد فارس مثل الطاهرية والصفارية وغيرها. وقد حاول امراء بعض هذه الدويلات التعرض للعراق ومحاولة احتلال بغداد بعد ان ادركوا ضعف الخلفاء العباسيين وسيطرة قادة الجيش عليهم.

---

(١) مسكوية، تجارب الامم، جـ ٢ ص ١١٩. ـ ابن الأثير، الكامل، جـ ٨ ص ٣٦٢

(٢) مسكوية جـ ٢ ص ٢٩٥ ـ ٢٩٨. ـ ابن الأثير، الكامل، جـ ٨ ص ٤٤٩ ـ ٤٥٠.

ولقد كانت الاحواز وهي الاقليم الواقع عند حافات جبال زاجروس والبختيارية والذي يعتبر امتداداً طبيعياً لاقليم العراق (السواد)، المنفذ الطبيعي والممر الاستراتيجي والجسر الموصل الى العراق. ولهذا كانت الخطوة الاولى ان يحتل هؤلاء الامراء الطموحين الاحواز ويتخذونها قاعدة للخطوة الثانية وهي الهجوم على العراق. وقد فعل ذلك طاهر بن الحسين القائد الفارسي في جيش المأمون. كما فعلها يعقوب بن الليث الصفار في محاولته الفاشلة لغزو العراق. ثم سيطر كل من احمد بن بويه معـز الدولة وعضد الدولة البويهي على العراق عن طريق الاحواز[١]. وتكررت هذه الظاهرة بين الامراء البويهيين المتنافسين على السلطة والنفوذ بعد عضد الدولة البويهي.

في أثناء النزاع بين الأمين والمأمون ارسل المأمون قائديه طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين وقابلا جيش الأمين في الاحواز فكانت المعركة الحاسمة سنة ١٩٧ / سنة ٨١٢ م التي قررت مصير العراق بعد اندحار جيش الخلافة العباسية. ورغم ان بغداد صمدت لحصار طويل دام اربعة عشر شهراً الا انها سقطت بيد قوات المأمون وقُتل الأمين[٢].

وفي العصر العباسي الثاني كانت بغداد في شغل شاغل عن الاقاليم بسبب المنافسة بين القادة العسكريين على مذهب امرة الامراء. وقد استغلت الاسرة البريدية الاوضاع المتدهورة لتحكم سيطرتها على الاحواز سنة ٣٢٣ / سنة ٩٣٥. وقد برز من هذه الاسرة ثلاثة اخوة هم ابو عبدالله احمد بن محمد البريدي الذي استولى على البصرةوواسط وكذلك على بغداد مؤقتاً سنة ٣٢٩ هـ. ثم ابو يوسف يعقوب بن محمد البريدي ثم ابو الحسين عبدالله بن محمد البريدي. ومن الصدف التاريخية ان الاخوة البريديين الثلاثة في الاحواز عاصروا الاخوة البويهيين الثلاثة في فارس والري. على ان مقدرة البويهيين

---

(١) ومما يلفت النظر ان الغزوات الفارسية للعراق في هذه الفترة كانت تمر عبر الاحواز أما غزوات الترك مثل السلاجقة والخوارزمية والمغول كانت تأخذ طريق حلوان وخانقين ويعقوبة!! والثاني أقرب إلى عاصمة الخلافة بغداد.

(٢) العيون والحدائق، ص ٣٣٠.

وحظهم في السياسة كان اكبر من نظرائهم البريديين[1] .

وقد بدأ ابو عبدالله البريدي حياته كاتباً لوالي الاحواز من قبل الخلافة العباسية . ويبدو انه كان طموحاً ومدركاً لتقلبات القوى السياسية . ولهذا فقد اتصل بالبويهيين سراً وسهل لهم أمر احتلال الاحواز من ياقوت الوالي العباسي .

الا ان الظروف السياسية للبويهيين لم تكن جيدة مما اضطرهم الى الانسحاب من الاحواز نحو شيراز وهذا ما جعل البريدي الذي غدا نائباً لهم على الاحواز في وضع لا يحسد عليه حيث هاجمته قوات الخلافة العباسة فاضطر للتخلي عن الاحواز واللحاق باسياده وحلفائه البويهيين . ولكن ابو عبدالله البريدي ما فتأ يلح على البويهيين بالسيطرة على الاحواز وتعهد لهم باعادتها الى نفوذهم اذا ما امروه بالجند . ولم يغب عن ذهن البويهيين أهمية الاحواز الاستراتيجية بالنسبة إلى تحركاتهم المستقبلية في العراق وبقية اقاليم الخليج العربي وبصفة خاصة السيطرة على طرق التجارة البحرية . هذا بالاضافة إلى ان اقليم الاحواز يعتبر اقليماً هاماً من الناحية العسكرية لكل من العراق وفارس والذي يسيطر على الاحواز ويتحكم في منافذه يستطيع ان يسد الطرق على أية قوة عسكرية إلى الشمال في اقليم فارس .

وبكلمة اخرى ان سيطرة بغداد بصورة قوية على الاحواز معناه سد الطريق امام البويهيين للتقدم باتجاه العراق الذي كان مستهدفاً من قبلهم . ولذلك قرر البويهيون امداد البريدي بالجند الديالمة لاعادة سلطته وبالتالي سلطة البويهيين على الاحواز ومن خلال ذلك تحقيق اهدافهم في العراق والخليج العربي .

ولم يكن البويهيون يثقون بالبريدي وقد انتهى دوره الآن بعد ان استغلوه في استرجاع الاحواز من الخلافة العباسية . وكانوا ينوون الاستيلاء عليها بصورة فعلية . ثم ان جند البريدي كان من الترك اما جند البويهيين فكانوا من الديلم وقد وقع الخلاف بين الفرقتين مما أضعف كثيراً من قوة البريدي .

---

(١) عن الاسرة البريدية راجع أحمد السعيد سليمان، تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الاسر الحاكمة ١٩٦٩ ص ٣٠٢

ولم يجد أحمد بن بويه صعوبة في طرده من الاحواز حيث انسحب مع بقية جنده نحو البصرة واستولى عليها .

كانت بغداد في شغل شاغل عن هذه التحركات المريبة في الاحواز ولم يدرك المسؤولون ان البويهيين انما ارادوا ان يثبتوا سيطرتهم على الاحواز من أجل ان ينقضوا على بغداد في أقرب فرصة . وكان الخلاف على أشده في بغداد بين أمير الامراء ابن رائق وقائد الجيش بجكم فانتهز البريدي هذا الخلاف واظهر المودة للطرفين . ولهذا حين انتصر بجكم على ابن رائق الذي فر من بغداد . وجعل بجكم ابا عبدالله البريري صاحب الاحواز وزيراً له في بغداد بعد أن نصّب نفسه أميراً للامراء . كما وأنه تصاهر معه . وبقي الحكم الثنائي في بغداد من ٣٢٦ ـ ٣٢٩ هـ ثم نشب الخلاف بينهما فانسحب البريري مرة اخرى نحو البصرة[١] .

الا ان بجكم قُتل في ظروف غامضة وهو يحاول ضرب البريدي بالبصرة وقد تشتت جنده وذهب قسم منهم إلى البريدي بالبصرة . وقد تحرك البريدي بسرعة واحتل بغداد دون مقاومة ولكن الخليفة المتقي لم ينصب البريدي امير الامراء لاعتقاده بأنه ليس اهلاً لها ولمعارضة الجند الديالمة للبريدي.

ان المنافسة بين زعيم الديالمة كورتكين والبريدي اضطر البريدي للانسحاب مرة اخرى نحو البصرة . ولكن كورتكين لم يستطع ان يبرز كقوة فعالة مما اضطر الجند إلى استدعاء ابن رائق ثانية من الشام وتنصيبه اميراً للامراء . وقد استدعى ابن رائق البريدي وعينه وزيراً للمرة الثانية[٢] .

الا ان صاحب الاحواز والبصرة اختلف مع ابن رائق بعد فترة وجيزة فاجتاحت جيوشه بغداد ونهبت دار الخليفة فهرب الخليفة المتقي ومعه ابن رائق إلى الموصل . وقد أعان ناصر الدولة الحمداني الخليفة العباسي على طرد البريدي من بغداد ولكنه قتل ابن رائق ونصّب نفسه اميراً للامراء . وتعهد

---

(١) راجع فاروق عمر، الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية ١٠٣ ـ ١٠٥ . ـ حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام جـ ٣ ص ٣٠

(٢) ابن الأثير، جـ ٨ ص ١٣٤

الحمدانيون ان يضعوا نهاية لنفوذ البريدي في البصرة وواسط ولكنهم لم يبروا بعهدهم. وقد وقعت بين سيف الدولة الحمداني والبريدي معركة قرب واسط الا انها لم تكن حاسمة وقرر سيف الدولة العودة إلى الجزيرة الفراتية[1]. وهكذا قُدِّرَ لقوة البريديين السياسية في البصرة وواسط والاحواز ان تلعب بمقدرات بغداد والخلافة العباسية لفترة من الزمن.

ولم تظهر أهمية الاحواز الاستراتيجية بالنسبة للعراق وفارس مثلما ظهرت في العصر البويهي. فبعد أن سيطر احمد بن بوية على الاحواز وتحكم في منافذها، هاجم البصرة وقضى على سلطة البريديين فيها ثم زحف نحو بغداد ودخلها سنة ٣٣٤ هـ وأصبح أمير الامراء فيها. ثم تمكن عضد الدولة البويهي من دخول بغداد عن طريق الاحواز وقضى على نفوذ ابن عمه بختيار عز الدولة في بغداد.

وحين انتهى عصر البويهيين الاوائل غدت الاقاليم نهباً بين الامراء البويهيين المتنافسين على السلطة الاكبر والنفوذ الاقوى. ففي سنة ٣٧٥ هـ استولى شرف الدولة على الاحواز مما أجبر أخاه صمصام الدولة على طلب الصلح معه ولكن شرف الدولة نقض الصلح وتقدم من الاحواز إلى العراق واستولى عليها سنة ٣٧٦ هـ وسجن أخاه صمصام الدولة[2].

وبعد موت شرف الدولة طمع فخر الدولة في بغداد وشجعه على ذلك وزيره الصاحب بن عباد ولما علم بهاء الدولة بذلك بادر بالتقدم نحو الاحواز وتصادم معه في الاحواز قبل دخوله العراق وانتصر عليه.

وحين تم الاتفاق بين بهاء الدولة وصمصام الدولة على أن يكون للاول العراق والاحواز وللثاني فارس فان بهاء الدولة طمع ببلاد فارس. فبادر صمصام بالاستيلاء على الاحواز وقطع الطريق على بهاء سنة ٣٨٥ هـ وعزز

---

(١) ابن الأثير، الكامل، جـ ٨ ص ١٤٠. - حسن أحمد محمود، العالم الاسلامي في العصر العباسي، ص ٣٧٢ فما بعد.

(٢) ابو شجاع: ذيل تجارب الامم، جـ ٣ ص ١٦٣ - ١٦٤. - ابن الأثير، الكامل، جـ ٩، ص ٢٨، ٢٣، ٣٩ فما بعد.

نصره بالاستيلاء على البصرة سنة ٣٨٦ هـ وهدد بغداد ذاتها لولا وقوع الصلح بينهما .

وحين تنافس على السلطة آخر امراء البويهيين الملك الرحيم ابو نصر خسرو فيروز مع أخيه ابو منصور صاحب فارس انتصر الاخير وضم الاحواز إلى نفوذه سنة ٤٤١ هـ بعد ان بقيت مدة طويلة تابعة للملك الرحيم الذي كان يستقر بالعراق. الا أن الملك الرحيم استرد الاحواز في السنة التالية وتابع انتصاره بالاستيلاء على اصطخر وشيراز فاذعنت له العراق ثم اذعنت له فارس بعد تحكّمه بالاحواز[١] .

وغدت الاحواز تابعة للسلاجقة بعد سيطرتهم على العراق سنة ٤٤٧ هـ وبعد انتهاء عهد السلاجقة العظام بوفاة ملكشاه احتدم الصراع بين بركياروق بن ملكشاه وأخيه محمد فكانت الاحواز ضمن نفوذ بركياروق الذي سيطر كذلك على فارس وطبرستان والحجاز والجزيرة الفراتية. ثم آلت الاحواز إلى محمد بن ملكشاه بعد وفاة بركياروق.

ولم تستطع الدولة الخوارزمية التي ضمت اليها العديد من الاقاليم التابعة للسلاجقة ان تسيطر على فارس والاحواز التي ظلت تحت سيطرة سلاجقة العراق رغم ان خوارزمشاه علاء الدين محمد ضم فارس إلى دولته الواسعة. وحين أراد آخر سلاطين الخوارزمية جلال الدين منكبرتي ان يهاجم الخلافة العباسية اتجه صوب الاحواز وهاجمها وحاصر تستر ثم ارسل رسالة تهديد إلى الخليفة العباسي ثم سار شمالاً حتى قرب من بغداد ولكنه لم يهاجمها بل حاصر داقوقا ونهبها ثم انسحب نحو اذربيجان[٢] .

إن موقع الاحواز الاستراتيجي باعتبارها دهليز العراق مركز الخلافة العباسية جعلها محط انظار العديد من الطامعين والطموحين الذين كانوا يخططون للسيطرة عليها من الانقضاض نحو مركز الخلافة بالعراق. ولهذا

---

(١) راجع حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام، جـ ٣ ص ٥٢، ٥٣، ٦٢، ١٠٦ . - كبير، البويهيون في العراق (بالانكليزية). ص ٦٨ - ٧٦، ص ٧٧ فما بعد.

(٢) ابن الأثير، الكامل، جـ ٩ ص ٣٥٥ فما بعد.

ولضعف الخلافة العباسية التي لم تنجح في التحكم بالاحواز اصبحت الاحواز عرضةً للغزو حيث تبادلتها الايدي مرة تلو اخرى خلال العصور العباسية المتأخرة. وقد اثر عدم الاستقرار هذا وعدم وجود حكومة قوية ودائمة على تقدم الاقليم وازدهاره اقتصادياً وبشرياً.

رابعاً ـ البحرين والحركة القرمطية:

لا يمكننا في واقع الأمر فصل بدايات الحركة القرمطية في السواد بالعراق ثم اشتدادها واستفحالها بالبحرين حيث استطاعت ان تكوّن دولة ذات كيان سياسي بارز عن بعضها البعض.

إن أقاليم الخليج العربي تكون وحدة جغرافية طبيعية وبشرية ولغوية ولذلك فإن انبثاق حركة ما او مذهب ما في منطقة خليجية معينة لا بد ان يجد له صدىً ان سلباً او ايجاباً في منطقة خليجية اخرى. وقد كان العراق في تلك الفترة الرائد والقائد في هذا الشأن. وكان الجو الثقافي والفكري الرفيع في مدينة البصرة الخليجية هو الذي أهّلها لكي تكون بؤرة تتبلور فيها الآراء والافكار المختلفة وتنضج ثم تصدر إلى خارجها عن طريق الدعاة والانصار وحملة العلم. ولهذا فإن كل الحركات التي ظهرت في منطقة الخليج في هذه الفترة من علوية واباضية وزنجية وقرمطية وغيرها كان منبتها وبداية امرها العراق كما فصلنا ذلك من قبل.

لقد نشأت الدعوة القرمطية بالكوفة في سواد العراق على يد حمدان قرمط كما أشرنا الى ذلك من قبل ولكنها ما لبثت ان انتشرت إلى البحرين بعد أن بث حمدان دعاته إلى اقاليم عديدة. ونجح الداعية ابو سعيد الجنابي بالبحرين وايدته قبائلها رغم ان نفوذه في البداية لم يصل العاصمة هجر.

وقد انيطت مهمة ضرب قرامطة البحرين إلى عامل البصرة عباس الغنوي ولكن ابا سعيد الجنابي باغته قرب البصرة وفرّق الجيش العباسي. وقد ساعدت هذه المعركة القرامطة على الاستيلاء على هجر واعلان دولتهم[1].

استمر ابو سعيد الجنابي في غاراته على جنوبي العراق وخاصة على قوافل

(١) مسكوية، تجارب الأمم جـ ١ ص ١٢٠ ـ ١٢١.

الحجيج بين العراق والحجاز، كما هاجم عمان واستطاع ان يلحقها لبعض الوقت إلى نفوذه. ثم عاد يهاجم البصرة والاحواز ووصلت بعض قواته إلى حدود بغداد وبهذا استطاع القرامطة بالاغارة الخاطفة والسلب والقتل ان يبثوا الرعب في قلوب الناس مما اضطر العديد من سكان المدن والقرى بالسواد إلى الهجرة من مواطنهم خوفاً من تكرار مآسي حركة الزنج.

وتجاه هذا الوضع المتردي اضطر الخليفة العباسي إلى ارسال نجدة عسكرية سنة ٢٩٠ هـ / ٩٠٢ م بقيادة العباس بن عمرو الذي ولاه البحرين ولكن الجيش انكسر وأُسر قائده.

وفي بداية سنة ٣٠٢ هـ توفي ابو سعيد الجنابي فخلفه ابنه سليمان ابو طاهر الجنابي وقد زادت في ايامه اعمال النهب والسلب. كما وأنه استطاع ان يستولي على البصرة سنة ٣١٥ هـ ٩٢٧ م فسيطر سيطرة تامة على طرق القوافل البرية وقوافل الحج. ورغم ان الخليفة العباسي ارسل جيشين لقتال ابي طاهر اولهما بقيادة عبدالله بن حمدان والثاني بقيادة يوسف بن ساج فقد صمد القرامطة لهما واحلوا بهما هزيمة منكرة وتعقبوا الجيش الثاني حتى مشارف العاصمة بغداد. ثم عرجوا على الكوفة ونهبوها.

وفي سنة ٣١٨ هـ / سنة ٩٣٠ م اغاروا على الحجاز ثانية ودخلوا الحرم المكي وقتلوا العديد من الناس الذين تعلقوا باستار الكعبة وردموا بئر زمزم ثم حملوا معهم اثناء انسحابهم الحجر الاسود إلى الاحساء وبقي هناك حتى سنة ٣٣٩ / ٩٥٠ م حيث أمرهم الخليفة المنصور الفاطمي برده.

ولم تتحرك السلطة العباسية المركزية للقيام بعمل جاد تجاه القرامطة مما جعلهم يتمادون في غيّهم ويضمون اليمامة إلى سلطانهم. ثم عادوا إلى شن هجمات جديدة على العراق والاحواز. مما اضطر الوزير العباسي ابن الفرات إلى فتح باب التفاوض مع ابي طاهر ولكن شروط هذا الاخير مقابل ايقاف الهجمات المدمرة هي تخلي العباسيين عن البصرة والاحواز والاعتراف بنفوذ القرامطة عليها!!. وتجاه هذا الشرط لم يكن امام العباسيين الا الرفض فكانت اجابة القرامطة باحتلال الكوفة سنة ٣٢٦ هـ /سنة ٩٣٧ م ونهبها وقتل العديد من سكانها كما أنه هاجم بغداد سنة ٣٢٩ هـ دون ان يتمكن من احتلالها مما

اضطر العباسيين إلى عقد هدنة مع القرامطة يؤدون لهم ضريبة تقدر لحوالي ١٢٠ ألف دينار الى جانب ضريبة اخرى على قوافل الحج. ومهما يكن من امر فعلينا الا ننسى حالة التفكك التي كانت تمر بها الخلافة العباسية فاذا كان الحكم في بغداد والبصرة لأمير الامراء ابن رائق واذا كانت الاحواز بيد البريديين وعمان بيد الاباضية وفارس والري والجبال بيد بني بوية والجزيرة الفراتية بيد الحمدانيين ومصر والشام بيد الاخشيديين فلماذا لا يطمح ابو طاهر القرمطي ليمد نفوذه إلى مناطق جديدة تضاف إلى البحرين واليمامة!![1].

على ان الحركة القرمطية شهدت خلال القرن الرابع الهجري انشقاقات خطيرة في صفوفها حيث اعلن ابو طاهر الجنابي ولائه للفاطميين بينما تقرب الحسن بن احمد بن ابي سعيد الجنابي الملقب (بالحسن الاعصم) للعباسيين والبويهيين وهاجم عدة مرات الجيش الفاطمي في بلاد الشام. وكان البويهيون بالعراق والحمدانيون بالجزيرة الفراتية يمدون الحسن الاعصم وقرامطته بالمال والسلاح لاستخدامه ضد الوجود الفاطمي في الشام.

ويبدو ان العزيز الفاطمي نجح في استمالة القرامطة فقد عادوا فهاجموا الكوفة سنة ٣٧٢ هـ / سنة ٩٨٢ م ولكن صمصام الدولة بن عضد الدولة البويهي نجح في كبح جماحهم وصدهم عن المدن العراقية مكبداً اياهم خسائر جسيمة فهانت قوتهم وزال من حينئذ ناموسهم. رغم استمرار هجماتهم السريعة التي تعتمد الكر والفر على المدن والقرى العراقية. وبعد انحسار نفوذ القرامطة ظلوا محتفظين بسلطتهم في اقليمهم الاول البحرين.

وهكذا يظهر واضحاً ان فعاليات القرامطة على مسرح الخليج العربي سواء في العراق او البحرين وعمان لا يمكن فصمها بل انها مترابطة في فعلها ورد فعلها. ومما يثير الانتباه ان السلطة البويهية في العراق رغم ادراكها لموقف الرأي العام الاسلامي من القرامطة الذين كانوا يعتبرون كفاراً وقتلة ولصوص، لم تجد السلطة البويهية حرجاً في التعامل والتفاوض بل والتحالف معهم.

---

(١) راجع فاروق عمر، التاريخ الاسلامي وفكر القرن العشرين ص ٢٧٤ فما بعد.

لقد كان البويهيون قوماً محاربين تهمهم مصلحتهم الشخصية ولذلك لم يأبهوا بآراء القرامطة الدينية او معتقداتهم الفكرية واثرها السلبي على المجتمع الاسلامي وعقيدته.

وفي بداية سلطتهم لم يكن لهم ضلع في مجالات الثقافة والفكر. ولذلك لم تقلقهم نشاطات القرامطة أو أثرهم الديني على المجتمع. وقد وجّه البويهيون إهتمامهم نحو الخليج العربي، فأحتلوا البصرة بعد بغداد، وطردوا البريديين منها؛ وأعادوا تنظيم أمور التجارة والكمارك فيها. ثم بدأوا يهددون نفوذ القرامطة على ساحل الخليج العربي.

ولم يكن بوسع القرامطة تحدّي القوة البويهية الجديدة خاصة بعد حدوث مشادّات عقائدية وسياسية داخل الحركة القرمطيـة في البحرين في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي حتى حوالي سنة ٩٤٤ م، ولذلك حصل إتفاق على اقتسام الفائدة من ضرائب التجارة الخليجية ومن الطرق التجارية البرية في شرقي الجزيرة العربية.

وقد أثّر إنتعاش تجارة البصرة على موانىء عُمان، فهاجم أهل عُمان مع الزنج وبعض القرامطة في عمان البصرة، ولكن البويهيين ردُّوا على الهجوم بالمثل براً وبحراً سنة ٩٦٥ م، واحتلوا عمان، ولكنهم لم يثيروا قرامطة البحرين[١].

وأستمر التحالف القرمطي ـ البويهي الحذر، وساعد القرامطة البويهيين في حـربهم ضـد السـامـانيين في الري مـرتين. وقـرّر القـرامطـة سنـة ٣٣٩ هـ / ٩٥١ م إعادة الحجر الأسود إلى مكة بعد أن بقي عندهم ٢٢ سنة. ذلك لأن وجوده لم يعد ذا فائدة بعد أن حققوا مكاسب سياسية وإقتصادية مهمة من خلال علاقتهم مع البويهيين، وما كانوا يتقاضونه من

(1) Bathurst The Ya'rubid Dynasty, (Introduction). ph. D. Thesis. Oxford. 1967.
Sha'ban: Op. Cit. Vol 2. P. 153.

الأخشيديين في مصر وبلاد الشام من هبات سنوية قدرت بـ ٣٠٠ ألف دينار من أجل ضمان أمن وسلامة القوافل التجارية البرية بين الشام والحجاز. ومن المناسب أن نذكر أن الفاطميين قطعوا هذه الأموال عن القرامطة بعد سيطرتهم على الشام سنة ٣٦٠ هـ / ٩٧١ م، فهاجمهم القرامطة واشتبكوا معهم في حرب دموية مرتين، ولم تكن هناك أية علاقة ودية بينهما. وقد بقي البويهيون في الظلّ دون أن يتدخلوا مباشرة في النزاع مع أنهم كانوا في السر يزوّدون حلفاءهم القرامطة بالمال والسلاح[١] !!

لم تشعر بغداد خلال العصر البويهي بأي قلق من الآراء القرمطية أو الهجمات العسكرية القرمطية، وقد دخل البويهيون في مفاوضات سياسية وتجارية مع القرامطة من أجل تفاهم مشترك، وكان لكل منهما في البصرة مركز كمركي لجباية مكوس التجارة ويبدو أن المكوس كانت مرتفعة، وأساليب جبايتها محكمة. كما أنهم حصلوا من بختيار على إقطاع في منطقة الفرات «سقي الفرات» وحصلوا من عضد الدولة على إقطاعات في منطقة واسط. وحين هاجم القرامطة البصرة بعد موت عضد الدولة استرضاهم أهلها بالمال[٢].

على أن القرامطة إرتكبوا خطأً كبيراً حين تدخلوا في النزاعات الداخلية البويهية وساعدوا أميراً ضد آخر. فقد أرسل إليهم شرف الدولة وفداً رسمياً، وكانت نتيجة المفاوضات التحالف بين الطرفين، فسيطر القرامطة على الكوفة باسم شرف الدولة، ولكن صمصام الدولة البويهي الذي كان مشغولاً بثورة في بغداد أرسل إليهم جيشاً دحرهم وطردهم نهائياً من الكوفة. فالبويهيون الذين تحمّلوا آراء القرامطة دون مبالاة أو إكتراث لم يتحملوا تدخل القرامطة في النزاعات والمنافسات بين الأمراء البويهيين على

(1) Sha'ban: Op. Cit., Vol. 2, P. 165.

(2) Kabir, M: **The Buwayhid dynasty of Baghdad**, PP. 14-72. Calcutta. 1964.

السلطة، فضربوهم ضربة قاضية سنة ٣٧٥ هـ / ٩٨٦ م حيث إنسحبوا من العراق وبادية الشام إلى حياة أكثر إستقراراً في البحرين[١]. واستمرَّ الحكم بيد آل الجنابي[٢] حتى نهايات القرن الحادي عشر الميلادي. ورغم أن دولة القرامطة زالت بعد ذلك، فإن الآراء القرمطية ظلت منتشرة في البحرين لأكثر من قرنين من الزمان.

خاتمة تحليلية

أثارت حركة القرامطة مشادة عنيفة بين المؤرخين... ومهما قيل في أصل الحركة فليس هناك خلاف في كونها فرقة إنشقت في الأصل عن الحركة الاسماعيلية العامة واعتبرت محمد بن اسماعيل القائم المنتظر. فهي إذن واحدة من فِرَق « الباطنية الغالية » التي حاولت إيجاد عقيدةٍ جديدةٍ توفِّق بين الإسلام والعقائد القديمة. وبمعنى آخر فهي لم تعترف بالإسلام كدين ـ رغم تظاهرها بذلك من خلال الشعارات التي طرحتها ـ بل أدخلت عليه عقائد الحلول والتناسخ وقدسيَّة الأئمة وما إليها من المبادىء المتطرفة. لقد كانت ثلاث من المراحل السبعة التي يمرُّ بها أنصار الدعوة القرمطية هي:

أولاً ـ مرحلة التشكيك حيث يلقن النصير آراء وعقائد وفرضيات تشككه في مذهبه وتخرجه منه.

وثانياً ـ مرحلة الخلع حيث يتبرأ النصير من عقيدته السابقة وتكاليفها الشرعية..

ثم تأتي بعدها مرحلة السلخ حيث ينسلخ النصير من مذهبه ليتبنى مذهب

---

(١) أبو شجاع: ذيل، جـ ٣، ص ١٠١ ـ ١٠٢. ـ راجع كذلك: ـ

Kabir, M: Op. Cit., P. 72.-Sha'ban: Op. Cit., P.166

(٢) عن سلالة أبي سعيد الجنابي راجع: ـ

Bosworth: the Islamic Dynasties, P. 69, Edinburg, 1967.

القرامطة وآراءهم، وحينئذ فقط يصبح النصير عضواً في الدعوة[١].

على أننا لا نعتقد بأن هذه المسائل العقائدية والمذهبية (الباطنية) باتت مهمة بالنسبة للقرامطة بعد تأسيس كيانهم السياسي، فشأن هؤلاء المغامرين في ميدان السياسة كشأن المغامرين السياسيين الذين سبقوهم من أمثال صاحب الزنج وحركته المعروفة (حركة الزنج) والتي حدثت في نفس المنطقة (سواد العراق) وفي نفس العصر (العصر العباسي الثاني) حيث كانت السلطة المركزية في بغداد تعاني من الضعف والفساد على يد القادة الأجانب الذين سيطروا على زمام الأمور. لقد أشرنا في بحثٍ سابق[٢] إلى أن حركة الزنج لم تكن «**ثورة عبيد**» وأن الزنج لم يقوموا بالدور الفعّال فيها كما يزعم بعض المؤرخين المحدثين الذين قلدوا آراء المستشرق «نولدكه»[٣] في هذا الصدد. إن صاحب الزنج لم يكن أكثر من مغامر سياسي استطاع أن يضم إليه المتذمرين من عرب الخليج وسواد العراق وكذلك الزنج (سكان شرقي إفريقيا الذين نزحوا إلى سواد العراق ومناطق الخليج العربي) ومن القبائل العربية التي كانت مع صاحب الزنج بجبلة وهمدان وعجل وعبدالقيس وتميم وقيس. وكان صاحب الزنج نفسه عربياً يساعده في القيادة زعماء عرب من آل المهلّب، وكذلك محمد بن الحسن بن سهل الفارسي. ولعل من المهم أن نذكر أن بعض الممولين اليهود وبعض التجار ساندوا الحركة بالمال، وأن قوة الحركة وأستمرارها أعتمد إلى حد ما على المعونة التي قدمها هؤلاء إليها[٤]. ولم يكن من أهداف الحركة تحرير العبيد بل إن خطب صاحب الزنج تعد الأنصار بالعبيد والمال!! ولعلّ ما ذكرناه هنا عن حركة الزنج يحولها من

---

(١) الغزالي: فضائح الباطنية. ص ٢١، ليدن ١٩١٦. ـ الديلمي: قواعد عقائد آل محمد، ص ٤٢، استامبول ١٩٣٤.

(٢) راجع مقالنا في مجلة (آفاق عربية) بغداد. ١٩٧٦.

(3) Noêldeke: **Sketches from Eastern History**, London, 1892.

(4) Sha'ban: Op. Cit., Vol. 2,P. 100.

«**ثورة عبيد**» إلى مغامرة سياسية حاكها مجموعة من رؤساء القبائل الطموحين للسلطة، وموّنها المرابون من اليهود والتجار.

وفي إعتقادنا أن الدعوة الاسماعيلية الأولى وربيبتها الحركة القرمطية نبتت وترعرعت في نفس البيئة التي أوجدت حركة الزنج. ولذلك حاول القرامطة تأسيس قاعدة قوية لهم في سواد العراق وكسب الأنصار من فلاحي السواد والزنج والبدو والقبائل العربية في أطراف الصحراء العراقية ـ السورية. وهذه القطاعات هي نفسها القوة الدافعة وراء حركة الزنج كذلك. وكما رفعت حركة الزنج شعار التشيُّع العلوي باعتباره الشعار المعارض للعباسيين، رفعت حركة القرامطة نفس الشعار... ومثلما أدعى صاحب الزنج النسب العلوي. تبنى زعماء القرامطة نفس الادعاء... وكما وعد صاحب الزنج أتباعه بتمليكهم الأراضي والعبيد والنساء وباع الأسيرات من نساء قرى السواد ومدنها بأبخس الأثمان. فقد وعد زعماء القرامطة أنصارهم بتمليكهم أملاك ساداتهم لأنها حق مشروع لهم «**وسينقذونهم من ورطات الذلّ والفقر، ويملكونهم مالاً يستغنون به عن التعب والكد**». ومثلما اعتمدت حركة الزنج على نهب مدن السواد وقراها، كذلك فعل قرامطة العراق وبادية الشام بالقرى والمدن في سواد العراق وعلى حافة صحراء بادية الشام وعمان وبالقوافل التجارية وقوافل الحج.

ومهما قيل عن الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية لحركة القرامطة ومحاولتهم تحقيق المساواة والرفاه المادي عن طريق جمع أموال المجتمع بيد الداعي أو المختار. لتوزع على أفراد المجتمع حسب حاجتهم لها بحيث لا يبقى معوز بينهم، فإن هذه الفرضيات تبقى مجرد فرضيات تعوزها الأدلة التاريخية الموثوقة. ولا بد لنا أن نشير هنا إلى أنه لم يكن على أقل تقدير من أهداف حركة القرامطة تحرير العبيد. لأن القرامطة أنفسهم كانوا يملكون العبيد في البحرين. وقد سخَّروا حوالي ثلاثين ألفاً منهم في أعمال الزراعة[1]. على أن

(١) ناصري خسرو: سفرنامه، ص ٢٢٥.

الإجراء الذي إتخذه حمدان قرمط في العراق. وذلك بفرض ضريبة على دخل الفرد يبقى إجراءً مهما رغم أننا لا نعلم مدى نجاحه وأثره ولا مدى تطبيقه في مجتمعات قرمطية أخرى. ولذلك فمن الصعب تسمية تجربة القرامطة بالتجربة «**الاشتراكية**» أو ما إليها من اصطلاحات القرن العشرين!!

وعلى المستوى السياسي يصطلح بعض الباحثين أسم «**الجمهورية الديمقراطية**» حين يصفون نظام حكم القرامطة... وفي ذلك خيال كبير. فمثلما يصعب علينا تسمية حكومة الخلفاء الراشدين أو نظام الإمامة الإباضية في عمان بأنها نظام جمهوري. يصعب علينا إطلاق ذلك على النظام السياسي للقرامطة. فليس بدعةً في تاريخ الإسلام والعروبة أن يكون الحكم شورى، ذلك أن القبيلة العربية قبل الإسلام كانت تحكم من قبل أهل الشورى (أهل الحل والعقد) يترأسهم الشيخ الذي يعتبر الأول بين أقرانه. وكذلك كان حكم الخلفاء الراشدين، وحكم الأباضية في عُمان وهي حركة سبقت القرامطة وعاصرتها. ففي البحرين كان الحكم بيد آل الجنابي يعاونهم أصحاب الحل والعقد (العقدانية)، وكان الرئيس يستشيرهم فهو السيد وهم الأشيرة[1] على أن الزعامة السياسية والعسكرية بقيت وراثية ومحصورة بيد آل الجنابي، وتبع ذلك في فترة ضعف القرامطة نزاعات بين أفراد العائلة الواحدة على الزعامة وأدى إلى انشقاقات وصدامات في داخل الحركة القرمطية نفسها. ولعل هذه المعلومات التي وردت في مصادرنا عن النظام السياسي القرمطي لا تجعله قريباً جداً من «**الجمهورية الديمقراطية**»!!

وربما خامرت أذهان القرامطة فكرة إسقاط الخلافة العباسية، وهي في أزمتها وضعفها، ولذلك شنوا غاراتهم التي هددت حتى بغداد، ورفعوا الشعار العلوي الذي يجعلهم بديلاً محتملاً للعباسيين، ولكن القرامطة سرعان ما أدركوا عدم قدرتهم على تحدّي السلطة العباسية وحلفائها الحمدانيين،

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض. ص ٢٥ فما بعد.

ولذلك عمدوا إلى أسلوب «**الكرّ والفرّ**» ... الضغط والتهديد ... السلب والنهب ثم الانسحاب إلى قواعدهم ... خطف الشخصيات البارزة في المجتمع ... كل ذلك من أجل الحصول على مكاسب آنية سياسية أو اقتصادية.

وقد رأى بعض المؤرخين وجود آراء مشتركة بين القرامطة والخُرّمية، ولكن من الصعب اعتبار القرامطة فرقة خُرّمية، فالحركة القرمطية ازدهرت في أقاليم عربية، وضمت إلى صفوفها نسبة كبيرة من البدو والقبائل إضافة إلى الزنج والنبط، ورغم أن الدعاة بشروا بتعاليم القرمطية في إيران إلا أنه لم يقدّر لهذه الحركة الانتشار في إيران، وفي هذا الصدد يقول أحد الباحثين:

«لم تستطع الدعوة (في إيران) أن تنجب دعاةً محاربين يتّصفون بصفات الدعاة الذين أنجبتهم الدعوة في العراق وسوريا واليمن والمغرب، بل كانت هذه الحركة تتجه إلى أساليب الإقناع العقلي والتأثير العلمي في المستجيبين عن طريق العلم والثقافة»[1].

ولذلك فلم يكن واضحاً أن من أهدافها إعادة المجد الفارسي أو السلطان السياسي الساساني، على أننا يجب أن نستدرك ونقول بأنه مهما كانت عقيدة القرامطة، ومهما كانت آراؤهم السياسية، فإن هذه العقيدة لم تمنع هؤلاء المغامرين السياسيين من الدخول في محالفاتٍ سياسيةٍ أو أتفاقات اقتصادية لاقتسام الغنائم مع أيّ طرفٍ من الأطراف، وهم بهذا يشبهون إلى حد ما زعماء حركة الزنج. لقد دخل القرامطة في تحالف مع البويهيين بعد سيطرة هؤلاء على العراق واتفقوا معهم على أقتسام الفوائد المتأتية من تجارة الخليج العربي، وكانت لهما مراكز لجباية المكوس في ميناء البصرة[2]، ومراكز

(١) عارف تامر: القرامطة. ص ١٤٨.

(٢) المقدسي: البدء والتاريخ، جـ ١، ص ١٣٥. - راجع كذلك: -

Kabir, M: Op. Cit., P. 72 FF. - Sha'ban: Op. Cit., P. 166

أخرى على طرق التجارة البرية. وأتفق القرامطة مع الأخشيديين حكام مصر وسوريا على حماية قوافلهم التجارية بين الشام ومصر والحجاز مقابل مبلغ سنوي يدفعه الأخشيديون للقرامطة. وساعدوا البويهيين في حربهم ضد السامانيين في الري، ودخلوا في حروب طاحنة مع الحمدانيين حلفاء العباسيين ثم **هادنوهم** ووقفوا على الحياد في الحرب البويهية الحمدانية. وهاجموا الفاطميين حين أمتنعوا عن دفع الأموال السنوية التي كان يدفعها الأخشيديون لهم، ولكن الفاطميين صدوا هجومهم مرتين في حرب دموية طاحنة[1].

وهاجم القرامطة قوافل الحجيج ونهبوها وأسروا شخصيات معروفةً فيها. وسلبوا الحجر الأسود من الكعبة إحتجاجاً على عدم مشاركتهم في الفوائد المتأتية من تجارة موسم الحج، ورفضوا إعادته رغم أن العباسيين عرضوا عليهم فدية من المال.

لقد كان لظهور القرامطة على الساحة العربية في تلك الفترة الحرجة التي مرت بها الخلافة العباسية والسلطة المركزية في بغداد آثاراً سلبية عديدة على المجتمع الاسلامي حينذاك، ولعل أبرز تلك الآثار:

أولاً ـ إن هجمات القرامطة المستمرة على المدن والقرى أجبرت السلطة المدنية برئاسة الوزير ابن الفرات في وزارته الثالثة إلى اللجوء إلى الجيش، وأدى ذلك إلى زيادة تدخل الجيش في السياسة؛ فبعد أن نجحت السلطة المدنية في إبعاد القائد مؤنس عن بغداد اضطر ابن الفرات تحت وطأة تهديد قرمطي جديد أن يستدعي مؤنس، وبذلك عادت المنظمة العسكرية تسيطر

---

(١) ليس من السهل تقرير أية علاقة بين قرامطة البحرين وبين الفاطميين في أفريقيا، ويرى الدكتور شعبان أن الفرضيات التي ذكرت في هذا الصدد تعوزها الأدلة التاريخية الموثوقة، ويفترض بأن أجهزة الدعاية لكل من القرامطة والفاطميين ربما بثتّ مثل هذه الدعاية لايهام الأعداء بوجود تعاون بين الطرفين. على أن التاريخ يثبت عدم وجود تنسيق بين الطرفين، وأن المرة الأولى التي حدث فيها اتصال. كان اتصالاً دموياً وعلى ساحة المعركة (راجع: شعبان. المصدر السابق).

على إدارة البلاد[١].

ثانياً ـ إن هجمات القرامطة المستمرة على المدن أوجدت جواً من الترقّب والعيش في ظل الخطر وتحت وطأة التهديد والخوف. إن هذا الجوّ النفسي المشحون بالترقب والخوف أدى إلى حدة النزاعات بين المذاهب والفرق وقطاعات المجتمع. ولعل ذلك بدا واضحاً في بغداد ذاتها[٢]، فقد حدثت اضطرابات في بغداد واتهم الناس الوزراء وخاصة ابن الفرات بموالاة القرامطة وسموه «**القرمطي الكبير**» بسبب عدم إتخاذه إجراءات شديدة وآنية ضدهم. وزادت الصدامات المذهبية حدة بين أحياء بغداد، وأخذت السلطة تقسو في التعامل مع كل من يدين برأي يخالف مذهبها، فقد أتهم الحلاج المتصوف بتهمة الزندقة وحتى بالقرمطية وحوكم وأُعدم. ولعل هذا مثل بارز لذلك الجو المشحون بالخوف والترقب من القرامطة «**الزنادقة الملحدين**»[٣].

ورغم أن البويهيين، كما أوضحنا، دخلوا في مفاوضات ومحالفات مع القرامطة، فإن ذلك لم يغير من حدة الجو السياسي، فالرأي العام لم يوافق أبداً على موقف البويهيين هذا من القرامطة، وبقي الخلفاء العباسيون[٤] يعبّرون عن رأي الناس عموماً في معاداتهم للقرامطة.

ثالثاً ـ ظهرت حركة القرامطة في المجتمع الاسلامي معبّرة عن مشاعر إقليمية[٥] ضيّقة وعن السخط والتذمر من قِبل بعض القطاعات الاجتماعية في

---

(١) مسكويه: تجارب الأمم، جـ ٥، ص ١٤٣. ـ الدكتور فاروق عمر: الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية، ص ٩٨، بغداد ١٩٧٧.

(٢) استطاع القرامطة أن يتغلغلوا حتى داخل بغداد، وأن يكسبوا لهم بعض الأنصار رغم قلة عددهم (راجع: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ ٨، ص ١٢٧).

(3) Sourdel: Op. Cit., P. 136.

(٤) راجع: ابن الجوزي، المنتظم، جـ ٧، ص ٢٨٧.

(5) Sha'ban: Op. Cit., P. 129.

مناطق معيّنة مثل الأعراب والبدو في بادية الشام، وقبائل البحرين، والزنج والنبط والأعراب في سواد العراق. لقد انتهزت الحركة الشيعية الاسماعيلية وحركات معارضة أخرى مثل هذه المشاعر الإقليمية في اليمن وطبرستان وأفريقيا وعُمان وخُراسان وأذربيجان، وقد سارت الحركة القرمطية على نفس المنوال فظهرت بمظهر المعبّر عن هذه المشاعر الإقليمية. ولهذا لم تكسب الحركة القرمطية قطاعاتٍ كبيرة من المجتمع بل إن جماهير الناس الذين تسميهم رواياتنا التاريخية «**العوام**» حاربوا ضدها في قرى السواد، وهذا يذكّرنا بنفس الموقف الذي إتخذته الجماهير العربية في سواد العراق وخاصة البصرة وقراها تجاه حركة الزنج!! ولعل إفتقار الحركة القرمطية للتأييد الجماهيري كان عاملاً مهماً في إضمحلالها في الفترة الأولى (٢٦٠ - ٢٩٥ هـ / ٨٧٣ - ٩٠٧ م) إضافة إلى الانشقاقات التي حدثت في صفوفها وملاحقة السلطة لها.

رابعاً - لم يكن القرامطة في سياساتهم مثاليين كما يحاول البعض من الكتّاب الرومانتيكيين[١] تصويرهم، فقد أعتمدوا على التهديد والسلب والنهب، وشجعوا المشاعر الإقليمية، وانتهكوا حرماتٍ تعتبرها الجماعة الإسلامية مقدسة، وقتلو الحُجّاج يوم التروية ورموهم في زمزم.

وقد فشلوا في تحقيق المساواة بين أفراد مجتمعهم لاستغلالهم العبيد في مجتمعهم في البحرين، وفشلوا في تحقيق الوحدة والانسجام بين صفوف أتباعهم من العرب والزنج. وتشير رواية تاريخية إلى أن سبب انسحابهم من عمان يعود إلى الانشقاق[٢]. الذي حصل بين قواتهم من العرب والزنج في عُمان. مما جعل أهل عُمان قادرين على طردهم. ولعل هذه الانشقاقات تعود

---

(١) يحاول الدكتور محمود اسماعيل أن يرى في سلطة القرامطة تطبيقاً عملياً لآراء أفلاطون في جمهوريته المثالية!! (**الحركات السرية في الإسلام، ص ١٣٧**).

(2) Bathurst: **The Ya'rubid Dynasty**, (introduction), ph, D. Thesis, Oxford, 1967.

إلى أن القرامطة ضموا إلى صفوفهم كُلَّ من يستطيعون كسبَه، ومن المشكوك فيه أن القطاعات التي انضمت إليهم كانت تدرك تعقيدات مذهبهم أو حقيقة آرائهم السياسية، وأن المراحل السبعة التي يشير إليها بعض المؤرخين كانت مقتصرة على الدعاة فقط. ولم يعتمد حمدان قرمط إلاّ على أقربائه الذين جعلهم نقباء لدعوته، والأكثر من ذلك فإن رقي الفرد في مراتب الحركة القرمطية لم يكن يعتمد على مقدرته في تفهُّم عقيدة الدعوة ونشاطه في نصرتها، بل كان حمدان قرمط يجعل شيوخ العشائر ورؤوس العصبيات في مرتبة «**المكاسر**» وهي أعلى مرتبة للدعاة، وذلك لنفوذهم على أتباعهم وقبائلهم، فإذا ما إنضمَّ الرئيس تبعته جماعته[1] !!

وبعد... وحسبنا في هذا المجال أن نكون قد قدَّمنا صورةً معتمدةً على مصادرنا التاريخية للقرامطة وآراءهم، وهي دون شكّ تختلف عن الصورة المثالية التي يحاول أن يشيعها «الهواة» من كتّاب القرن العشرين والتي أقل ما يقال عنها أنها إنعكاس لمذهبهم السياسي الذين يدينون به.

خامساً ـ عمان والاباضية:

لقد أشرنا سابقاً بأن عمان ارتبطت بالبصرة ارتباطاً بشرياً من خلال اتصالات القبائل العربية وهجراتهم المستمرة منذ الفتوحات الاسلامية، كما ارتبطت عمان بالبصرة ارتباطاً عقائدياً من خلال المذهب الاباضي الذي بدأ بالبصرة وازدهر بعمان فكون كياناً سياسياً مرموقاً.

على أن الامويين ومن بعدهم العباسيين لم يستطيعوا ان يثبتوا سيطرتهم على عمان التي احتفظت باستقلاليتها ولم يتعد نفوذ الوالي العباسي الساحل ومدنه الرئيسية اما الدخل والجبل فكانت قبائله تتمتع بالسيادة التامة. بل ان الاباضية استطاعوا ان يعلنوا امامتهم منذ سنة ١٣٢ هـ متحدين العباسيين

---

(١) د. محمود اسماعيل: **الحركات السرية في الإسلام**، ص ١٢٧ بيروت ١٩٧٣.

ومنتهزين فرصة الاضطرابات في العراق وبلاد الشام.

وقد ظلت السلطة العباسية اسمية على عمان ولم يكن للعباسيين هدف الا تأمين طرق الملاحة البحرية عبر الخليج ولذلك كان همهم السيطرة على السواحل فقط دون الداخل. وقد أدرك البويهيون الذين تسلطوا على مقدرات العراق السياسية سنة ٣٣٤ هـ اهمية اقليم عمان الاستراتيجية بالنسبة لأمن الخليج من جهة ولتأمين انسياب السلع التجارية من جهة اخرى تلك السلع التي كانت تدر ارباحاً كبيرة من الضرائب والمكوس المفروضة عليها.

وحين استولى معز الدولة البويهي على بغداد والبصرة والاحواز كان لا بد له ان يشعر عمان بقوة النفوذ البويهي. الا ان امير عمان يوسف بن وجيه اتفق مع قرامطة البحرين وتصدى له. ولكن نتيجة المعركة كانت انتصار البويهيين بسبب خذلان القرامطة ليوسف بن وجيه. وفي سنة ٣٥٥ هـ / سنة ٩٦٦ م استطاع البويهيون السيطرة على سواحل عمان واستمر نفوذهم حتى سنة ٣٦٣ هـ / سنة ٩٧٣ م حيث قتل الوالي المرتبط بالبويهيين وعادت عمان سيرتها السابقة[١].

ولكن عضد الدولة البويهي لم يهمل عمان طويلاً فقد كان يدرك اهميتها لأمن الخليج وتجارته فاتبع سياسة جديدة لا تتورع من التعاون حتى مع القرامطة والعمل على عدم اثارتهم بل التفاهم معهم على اقتسام ارباح التجارة الخليجية. كما منح بعض القرامطة اقطاعات في سواد العراق[٢]!! وبقي النفوذ البويهي كغيره بين مد وجزر ولم يشمل في أحسن حالاته غير سواحل عمان بينما بقي نفوذ الاباضية مستمراً في داخل عمان.

---

(١) ابن الأثير، الكامل، جـ ٨ ص ٢٩٨، ٢٩٩، ٢٧٢. - ابن حوقل، المسالك والممالك ص ٢٢

(٢) شعبان، التاريخ الاسلامي (بالانكليزية) جـ ٢ ص ١٥٣، ١٦٦ - ١٦٧.

استمرار التطور السياسي للامامة الاباضية الثانية بعمان:

امامة الصلت بن مالك ٢٣٧ - ٢٧٣ هـ / ٨٥١ - ٨٨٥ م

بعد وفاة الأمام المهنا بن جيفر اليحمدي أجتمع كبار علماء الاباضية وقادتهم، وكان رئيسهم في العلم وأمامهم في الدين محمد بن محبوب[١] فبايعوا الصلت بن مالك بالأمامة في السادس عشر من ربيع الثاني سنة ٢٣٧ هـ[٢] وهو التاريخ الذي مات فيه المهنا بن جيفر أذ أن العادة التي جرت عليها الأباضية تقضي بمبايعة امام جديد في ذات اليوم الذي يتوفى فيه الامام السابق لكي لا تبقى الأمة بدون امام يقودها ويسوس أمورها ولتجنب الفرقة التي يحدثها تأجيل الانتخاب والبيعة لامام جديد[٣]. ويذكر ابو المؤثر الذي شهد بيعة الصلت أن العلماء بايعوا الصلت للامامة « كان المشهور فيهم يومئذ محمد بن علي القاضي وسليمان بن الحكم والوضاح بن عقبة ومحمد بن محبوب وزياد بن الوضاح »[٤]. كما حضر البيعة مجموعة اخرى من العلماء ووجوه

---

(١) كشف الغمة، ٣٣٣ أ. - ومحمد بن محبوب: من مشاهير العلماء لدى الأباضية في القرن الثالث الهجري، كان جده الرحيل بن هبيرة من الدعاة البارزين في مرحلة الكتمان في البصرة وهو الذي نفاه الحجاج مع جابر بن زيد الى عمان. الدرجيني طبقات الاباضية، ورقة ١١٩ أ ويذكر الرقيشي أن محمد بن محبوب يرجع نسبه الى قريش فهو محمد بن محبوب بن الرحيل بن هبيرة بن سيف من قريش وكان هبيرة من فرسان النبي (ﷺ). الرقيشي مصباح الظلام، ٢٨ آ.

ومما هو جدير بالذكر ان آل الرحيل لا زالت لهم بقايا حتى يومنا هذا قال السيابي: « وبعمان من آل الرحيل أولئك الأئمة الأعلام محبوب بن الرحيل... وهو المشهور في المذهب بأبي سفيان وولده العلامة القدوة الجليل محمد بن محبوب أكبر عالم في زمانه... ومنازلهم أشهر من نار على علم من ذلك العهد الى هذه الأيام الأخيرة ولا زال لهم خلف بهذه الديار..)

السيابي، سالم بن حمود، أسعاف الاعيان بسيرة أهل عمان (بيروت، ١٩٦٥) ص ١٦.

(٢) مصباح الظلام، ٢٩ أ. - كشف الغمة ٣٣٣ أ. - السالمي التحفة ١/١٦٢.

(٣) راجع مهدي هاشم، المصدر السابق، ص ٢٥٥.

(٤) أبو المؤثر، كتاب الاحداث والصفات، ورقة ٢.

القوم: « الا أن محمد بن علي وبشير بن المنذر ومحمد بن محبوب والمعلا بن منير وعبيدالله بن الحكم كانوا هم المقدمين في البيعة للصلت بن مالك »[١] مع من حضر من الاباضية وقد أنقاد بالاباضية لبيعتهم ولم يكن هناك اختلاف حول أمامته[٢]. وشهدت عمان في صدر امامته استقراراً سياسياً فلم يعد لقوى المعارضة أي دور يذكر مما يدل على أستتاب الأمن والاستقرار.

ولعل من أبرز الاحداث الداخلية في هذه الحقبة تعرض عمان للسيول الجارفة في سنة ٢٥١ هـ وكان من نتائجها تعرض مناطق واسعة للخراب والدمار وأصبحت المدن العامرة أثراً بعد عين. ومن شدة هذه السيول وغزارتها انها لم تعط للناس الفرصة للهرب فذهب الكثير من الضحايا في الأنفس والاموال[٣]. ويصف السالمي السيول نقلا عن بعض المصادر المتقدمة بقوله: « فقلعت السيول المنازل والاموال وغرقت النساء والرجال فغرق الرجل وعياله، وتخرب منزله وماله... وحملت البحور أبدانهم وقلعت الأشجار، فأصبح السالم الموسر منهم فقيراً يطلب الأكل والشيء اليسير »[٤] وقد شملت هذه السيول بدمارها عامة عمان وتركزت بصورة خاصة في منطقة الباطنة[٥] وسمائل وبدبد وقيقا ودما وصحار. مما أدى الى تلف الأراضي الزراعية في هذه المناطق وأختفاء المعالم التي كانت تفصل بين الاراضي المزروعة وقد تصالح اهلها فيما بينهم في تعيين اراضيهم بعد انقطاع

---

(١) أبو المؤثر، الاحداث والصفات، ورقة ٢٠. - السالمي، التحفة ١/١٦٢.

(٢) كشف الغمة، ورقة ٣٣٣ أ. - السالمي، المصدر السابق، ١/١٦٣.

(٣) السالمي، المصدر السابق، ١/١٦٤.

(٤) السالمي، التحفة، ٢/١٦٤.

(٥) الباطنة: (وهي سهول واسعة خصبة يتراوح عرضها من ٢٠ - ٤٠ ميلا تنمو فيها أشجار النخيل والفاكهة.، الدباغ، جزيرة العرب ٢/١١٢. « وتمتد من مدينة مسقط الساحلية حتى مدينة خصب عند رأس الشيخ مسعود المواجه لمضيق هرمز الى الشمال، وتشرف على خليج عمان ومن مدنها المشهورة السيب) السعدي، مجلة رسالة الاسلام العدد التاسع والعاشر (بغداد، ١٣٩٠) ص ١٩٥.

السيول باستثناء منطقة بدبد التي اصبحت بحكم المال المجهول فالحقت ببيت مال المسلمين لهلاك اهلها مما يدل على ان هذه المنطقة كانت اكثر المناطق العمانية تضرراً بهذه السيول[١].

ونلاحظ هنا ان هذه المناطق كانت تعد اغنى مناطق عمان من الناحية التجارية والزراعية، وخاصة مدينة صحار التي كانت سوق عمان التجاري[٢].

وقد بعث الصلت بن مالك بعهد لغسان بن خليد حين بعثه والياً على رستاق هجار[٣] تعنيناً منه الفقرات التي تتعلق بسياسته الداخلية، يظهر فيها تأكيد السلطة المركزية للامام فلا يجيز للوالي البت في الاحكام الا بعد الرجوع وأخذ الاذن من الامام «ولا تقم شيئاً من الحدود من قبلك، ولا تحكم بين الناس في القصاص... حتى ترفع ذلك اليّ وكلما اشتبه عليك شيء من الحكم فيما بين الناس فقف ولا تتقدم عليه حتى تشاورني، فأنظر فيه أنا ومن معي من أهل الرأي، ثم أطلعك من ذلك على ما أرجوا به السلامة..»[٤] ويظهر من هذا النص ان السلطة بالنسبة للامام مدعمة من أهل الرأي ولكنها مركزية بالنسبة للولاة.

وفي هذا العهد أشار الى أهل الذمة مما يدل على وجودهم في رستاق هجار وقد اوصى الصلت بن مالك واليه بأخذ الجزية عند حلول كل شهر

---

(١) السالمي، التحفة ٢/١٦٤ - ١٦٥.

(٢) البكري، المسالك والممالك، ٢١٥ ب.

(٣) الرستاق: تقع الرستاق في الجبل الأخضر من الناحية المطلة على سهل الباطنة ولعل هجار إحدى ولاياتها أو المركز الاداري للرستاق الحالية وبها قلعة تعرف باسم قلعة كسرى) مما يدل على إنها كانت فارسية الأصل. السعدي رسالة الاسلام ع ٧ - ٨، (بغداد، ١٣٩٠) ص ١٩١.

الدباغ، جزيرة العرب، ٢/١٢٦.

(٤) السالمي، التحفة ٢/١٨٧.

استثنى فيها الفقراء والصبيان والنساء والشيخ الكبير والعبيد كما اوصى بأن تربط « اوساطهم بالكساتيج [١] وجز نواصيهم، وشرك نعالهم حتى لا يشبهوا بأهل الصلاة »[٢] كما فرض عليهم التزامات اخرى تميزهم عن غيرهم من المسلمين، ويظهر ان هذه التعليمات كان متعارفاً عليها في المجتمع الاسلامي مع بعض الاختلافات الاقليمية.

يقول متز: « فقد أمر هارون الرشيد ١٩١ هـ / ٨٠٧ م بأن يؤخذ أهل الذمة في مدينة السلام بمخالفة هيأتهم هيأة المسلمين في لباسهم وركوبهم »[٣] وفي « عام ٢٣٩ / ٨٥٣ أمر المتوكل أن يقتصر أهل الذمة في مراكبهم على البغال والحمير دون الخيل والبراذين »[٤].

مع العلم ان الاباضية لا تخرج عن الاطار الاسلامي العام في هذا الحكم. ويظهر ان الاوامر كانت تقضي بالتشديد على الفرق الاسلامية الاخرى وعدم السماح لها بترويج افكارها « واظهر الشدة والتخويف لأهل الخلاف لقول المسلمين[٥]. ومن يرى رأي القدرية والمعتزلة والخوارج والمرجئة وأخمد أمرهم وأمت بدعتهم، . . والكف عن القول بغير قول أهل هذه الدعوة فمن أظهر شيئاً من ذلك فارفع الي أمرهم حتى أنظره . . »[٦] من هذا النص

---

(١) الكساتيج: خيط غليظ يشده الذمي فوق ثيابه دون الزنار.

(٢) السالمي، المصدر السابق ١٩٢/١. ولما كانت عمان من المناطق التجارية فقد استوطن فيها اليهود للعمل بالتجارة وخاصة في صحار: أنظر السالمي، ١٣٧/١.

(٣) متز، آدم، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، المجلد الاول، ص ١٠١.

(٤) المصدر نفسه، ١٠٣.

(٥) يسمى الأباضية أنفسهم بالمسلمين وغيرهم أهل الخلاف فكلما ترد كلمة المسلمين من قبل فقهائهم وكتابهم فأنهم يعنون بها الأباضية أنظر، أبو المنذر، مخطوطة كتاب المستأنف المعروف بكتاب الرصف.

كشف الغمة ٣٣٣ أ.

(٦) السالمي التحفة، ١٩٢/١.

يستدل على وجود هذه الفرق بعمان مع الاباضية.

فتح جزيرة سقطري

كان لموقع سقطري[١]. الجغرافي أثر بارز في تاريخ الجزيرة السياسي والأجتماعي والاقتصادي، اذ انها تقع بالقرب من الساحل الشرقي لافريقيا وبالقرب من هذا الساحل تقع دولة الحبشة المسيحية كما انها تقع الى الجنوب من شبه الجزيرة العربية[٢] التي انتشر فيها المذهب الاباضي في كل من حضرموت وجنوب عمان. وكان لموقعها التجاري اهمية كبيرة في حياة سكانها حيث يمر بها الطريق التجاري الذاهب الى شرق افريقيا، والى البلاد الواقعة جنوب المحيط الهندي وبحر الصين[٣]. فكانت ممراً للتجار المسلمين الذين نشروا الاسلام بهذه الجزيرة وما جاورها من الجزر الاخرى، وكانت هذه الجزيرة قبل الاسلام موطناً للنصارى[٤] وقد نزحت اليها قبائل مهرة ويشير

---

(١) يشير الهمذاني الى موقع هذه الجزيرة فيقول: «وهي وجزيرة برابر مما يقطع بين عدن وبلد الزنج ثابتاً على السميت، فاذا خرج الخارج من عدن الى بلد الزنج أخذ كافة يريد عمان وجزيرة سقطري تماشيه عن يمينه... وطول هذه الجزيرة ثمانون فرسخاً...».

الهمداني، أبو محمد الحسن بن أحمد، صفة جزيرة العرب، (القاهرة، ١٩٥٣) ص ٥٢. - أما العوتبي فيخالف الهمذاني بتقديره لطول الجزيرة ويذكر أن (طولها ثلاثمائة فرسخ) العوتبي. الأنساب، ورقة ٥٨ أ. أنظر ايضاً المهري، سليمان بن أحمد بن سليمان، المنهاج الفاخر في علم البحر الزاخر، (دمشق، ١٩٧٠) ق ١، ص ٦٥.

(٢) أنظر السعدي، سقطري، مجلة رسالة الاسلام، العدد ٩ - ١٠، السنة الرابعة، (بغداد، ١٩٧٠) ص ١١٥ - ١٢٠.

(٣) د. مؤنس، عالم الاسلام، ص ٦ ويشير الدكتور مؤنس بقوله «فقد كان تجار العرب يخرجون من عدن الى جزيرة سقطرى فإلى جزيرة تكديف ثم الى قاليقوت التي كانت أكبر مراكز تجمعهم..» ص ٧٦.

(٤) يشير الهمذاني في رواية مختصرة جداً أن في الجزيرة «نحو عشرة الاف مقاتل وهم نصارى»، ولكن لا يحدد لنا الهمذاني الفترة التاريخية لوجود هؤلاء النصارى، الهمذاني، صفة جزيرة العرب ص ٥٣. - ويشير العوتبي ان كسرى طرح بها قوم من بلد الروم

خاتمة

لعلنا نخلص من هذه الدراسة الى أن الخليج العربي وطن واحد يتكون من مجموعة أقطار وهو جزء من الوطن العربي ويمثل حدوده الشرقية التي تقف عند حافات جبال زاجروس وهذا ما دعى الخليفة عمر بن الخطاب (رضي) الى الأمر بوقف الزحف الاسلامي بعد معركة نهاوند رغم إن الظروف دعته ثانية الى أن يُغيِّر من خطته ويعقد الرايات لفتح بلاد فارس بأجمعها .

إن أقاليم الخليج الأربعة الرئيسية في العصور الاسلامية هي العراق (السواد) والبحرين وعمان والاحواز. وهي أقاليم عربية بشرياً وتاريخياً وجغرافياً . كما وإن السواحل الشرقية للخليج جنوبي الاحواز يسكنها العرب الذين هاجروا اليها قبل الاسلام بقرون خلت وهاجروا اليها بعده كذلك .

ولقد ظل الخليج خلال العصور الاسلامية الوسطى بحيرة عربية - اسلامية يتمتع فيها العرب المسلمون بدور الريادة والقيادة والنفوذ السياسي والتجاري على البر والبحر وعلى كافة السواحل المحيطة بمياهه .

أما الوحدة الحضارية التاريخية المشتركة للخليج فقد أثبتتها المكتشفات الأثارية الحديثة والتي أشارت إلى وجود الحضارة في أقاليم الخليج المختلفة في وقت واحد أو أوقات متقاربة تقريباً . فقد ظهرت الحضارة بالعراق في حوالي الألف الخامس قبل الميلاد وأعقبتها حضارة بلاد عيلام (جنوبي

شرقي العراق والاحواز) بينما ظهرت حضارة دلمون (البحرين) ومجان (عمان) في حوالي الألف الثالث قبل الميلاد، ولقد أستمرت هذه الحركة الحضارية والتاريخية المشتركة حتى سقوط بابل سنة ٥٣٨ ق . م على يد الفرس الأخمينين. وقد وسع الفرس نفوذهم على مناطق معينة من أقاليم الخليج الأخرى بعد إحتلالهم للعراق.

ولكن النفوذ الأجنبي الفارسي لم يؤثر كثيراً على البنية الأجتماعية والهوية الثقافية والشخصية لأقاليم الخليج. فقد فشل الفرس في إعاقة حركة القبائل العربية في هذه الأقاليم بل لم يتمكنوا من إيقاف التدفق والاستيطان العربي على السواحل الشرقية ذلك لان الفرس لم يكونوا بحّارة ماهرين في الوقت الذي إزداد دور العرب البحري والتجاري. وحتى حين غدا لدولة الفرس أسطولاً فإنها أعتمدت في تسييره على العرب ملاحي الخليج.

بل أكثر من ذلك فإن دول الفرس الأخمينية والفرثية والساسانية لم تستطع أن تسيطر على العرب في أقاليمهم التي تمتعوا فيها باستقلال تام أو ذاتي عن السلطة الفارسية التي لم يكن لديها على السواحل سوى مراكز تحرسها حاميات فارسية في هذه الأقاليم العربية. في الوقت الذي نجح العرب في تأسيس إمارة المناذرة في العراق ثم إمارة ميسان في جنوبي شرقي العراق والاحواز حوالي سنة ٢٢٠ ق . م وأستمرت أكثر من أربعة قرون وكان ملوكها يلقبون بلقب «ملك العرب» وكانوا على صلات وثيقة بعرب البحرين وكونوا صلات تجارية مع دولة الانباط في جنوبي بلاد الشام[١].

لقد وصلت المقاومة العربية في الخليج ذروتها للفرس الساسانين بعد إجراءاتهم التعسفية ضد العرب حين إصطدم عرب العراق في معركة ذي قار وأصطدم عرب البحرين في معركة الصفقة وأصطدم عرب عمان في معركة

---

(١) نزار الحديثي، الحدود الشرقية للوطن العربي، ص ١٩ .

قلهات بالجيش الساساني المحتل وحققوا نصراً مبدئياً مهماً عليه فكانت أياماً عربية خالدة.

ثم جاء الاسلام وكانت قيادة الدولة الاسلامية بالمدينة تنظر الى هذه الأقاليم الخليجية كوحدة واحدة في خططها الخاصة بالفتوحات ونشر الاسلام. ولذلك شاركت قبائل غربي العراق في تعقب مرتدي البحرين واستأصلت فلولهم وشارك المسلمون من أهل البحرين وعمان في عمليات تحرير العراق من الفرس. وفي العمليات العسكرية التي بدأت من البصرة لفتح بلاد فارس. ولذلك نهض العراق لنجدة المسلمين المحاصرين في سواحل الخليج الشرقية بقيادة العلاء بن الحضرمي وانقاذهم ثم الإنسحاب بهم نحو العراق. ثم شاركت قبائل الخليج المسلمة في تحرير الاحواز من سيطرة المرزبان. ولهذا أيضاً شارك أهل عمان والبحرين في مشاغلة الفرس ووقف محاولاتهم للزحف من الجنوب وتطويق المسلمين الصامدين على الجبهة الشرقية. وبذلك قضوا على آخر أمل للفرس لاستعادة نفوذهم في الخليج بحركة مباغتة. إن كل ذلك يظهر التكامل العسكري لمنطقة الخليج وكيف تستطيع أقاليمه أن تنجد بعضها بعضاً عند نشوب الخطر. لأن أي خطر على احدها هو خطر عليها كلها.

وحين استقرت أمور الدولة الأسلامية وبدأ تنظيم الدولة إدارياً وسياسياً يبدو دور العراق بارزاً في منطقة الخليج. فلقد شملت مسؤولياته الادارية والسياسية والعسكرية أقاليم الاحواز والبحرين وعمان وغيرها. كما غدت العراق قاعدة لفتوحات المشرق (بلاد فارس). وأحتلت البصرة مكاناً مهماً في النشاط التجاري والملاحي حيث أصبحت المركز الرئيسي للسفن التجارية وللأسطول الحربي الأسلامي الذي يؤمن الأستقرار في منطقة الخليج تجاه الأخطار المهددة لأمنه وتجارته. وعدا عن هذا وذاك غدت البصرة والكوفة بالعراق مراكز للاشعاع والفكر الثقافي في المجتمع الاسلامي ولا شك أن تأثيرها في هذا الأتجاه على أقاليم الخليج كان مباشراً. فالعديد من علماء

الخليج درسوا في البصرة وعاشوا فيها والعديد من الحركات الفكرية والسياسية التي ظهرت في أقاليم الخليج المختلفة كان منشؤها وبدايتها في البصرة أو الكوفة. وحين تأسست بغداد في بداية العصر العباسي غدا تأثيرها واضحاً على أهل الخليج.

وليس من قبيل المصادفة أن تناط مسؤولية الخليج العربي خلال العصور الاسلامية المتعاقبة بالعراق، فالخلافة الاسلامية نظرت الى منطقة الخليج باعتبارها وحدة إدارية وسياسية وعسكرية متكاملة وقد أستندت هذه النظرة الموضوعية «الى الخلفية التاريخية للمنطقة وهي خلفية ليس بالامكان إهمالها تتلخص في أن هذه المنطقة تمثل فيها نشاط حضاري متكامل وحركة تاريخية واحدة منذ أقدم العصور»[١]. كما وإن هذه الخلفية التاريخية تؤكد بأن المنطقة إرتبطت بالعراق حضارياً منذ أقدم العصور.

إن العراق بالنسبة الى منطقة الخليج العربي هو الرأس وعليه ـ شاء أم أبى ـ أن يتحمل المسؤولية في القيادة والريادة في الدفاع وفي الهجوم. وتنصل العراق من هذا الموقع من المسؤولية يخسره نفسه ومصيره ويفقده هويته الخليجية العربية الاسلامية. ولا شك فإن هناك عوامل جعلت العراق ـ من بين أقاليم الخليج العربي ـ يتحمل العبء الأول في المسؤولية نذكر أهمها:

اولاً ـ لقد عاش العراق على الدوام في خطر بسبب أهمية موقعه الجغرافي والأقتصادي ولقد كان هذا الخطر يتأتى دائماً من جهة الشرق والجنوب الشرقي. ولا شك فإن الخطر الدائم أرهف الحساسية وشحذ الوعي وعمق من إمكانيات الإنفتاح لدى أهل العراق أكثر من غيرهم.

ثانياً ـ وكان العراق أكثر من غيره من أقاليم الخليج مستهدفاً ذلك لأن العدو الخارجي كان يرى فيه مفتاح المنطقة ومكمن القوة إذا سيطر عليه سيطر على كافة المنطقة الخليجية أو تحكم فيها.

---

(١) نزار الحديثي ـ الحدود الشرقية للوطن العربي، ص ٢٦

ولقد كانت العراق تحاول دائماً أن تبني قوة ذاتية مؤثرة تحمي نفسها وأقاليم الخليج ولكن كان هناك على الدوام قوة مضادة لإحباط هذه المحاولة تتمثل ببعض قوى المعارضة وبحركات الشعوبية والزندقة والخرمية الفارسية وغيرها من الحركات المعروفة في العصر الاسلامي.

ثالثاً ـ التوجه الجغرافي العراق رغم كونه توجه مزدوج نحو الخليج العربي ونحو البحر المتوسط عبر تاريخه. إلا أن توجهه الطبيعي والأقوى على الدوام كان ويجب أن يكون نحو الخليج العربي. لأن العراق يشرف على مياه الخليج بجبهة مائية هامة. ويتصل العراق بالخليج كذلك بطريق نهري من الدرجة الأولى هو طريق شط العرب لهذا كان التوجه الجغرافي للعراق مركزاً نحو هذه الجبهة البحرية وعليها قامت موانىء العراق الرئيسية التي تربطها بالعالم الخارجي وبأقطار الخليج الأخرى. ولذلك فإن الخليج من وجهة نظر العراق مسألة حياة.

من هنا كان إهتمام الخلافة الاسلامية في العصرين الأموي والعباسي بضمان استقرار الخليج وأمنه وسحق الأضطرابات في أقاليمه المختلفة. فالخليج شريان الحياة للعراق ولبقية أقاليم الخليج وإن عدم إستقراره يهدد مصيرهم جميعاً.

رابعاً ـ إن حافات جبال زاجروس والبختيارية تعتبر خط الدفاع الأول عن العراق وأقاليم الخليج العربي وأن العديد من الغزاة دخلوا منطقة الخليج من هذا الممر محتلين الاحواز ثم العراق ثم بقية الأقاليم الخليجية فلقد نجح طاهر بن الحسين الفارسي وكاد يعقوب بن الليث الصفار أن ينجح ثم نجح معز الدولة البويهي كذلك في إحتلال العراق ثم مد سيطرته على بقية المنطقة عبر هذا الطريق. ويبدو أن أقاليم الخليج عبر العصور الوسطى الاسلامية كانت تدرك مسؤولية العراق باعتباره أول من يواجه الخطر كما وإن العراق كان يعلم إن أقطار الخليج العربية هي العمق الاستراتيجي والبشري له في هذه المواجهة.

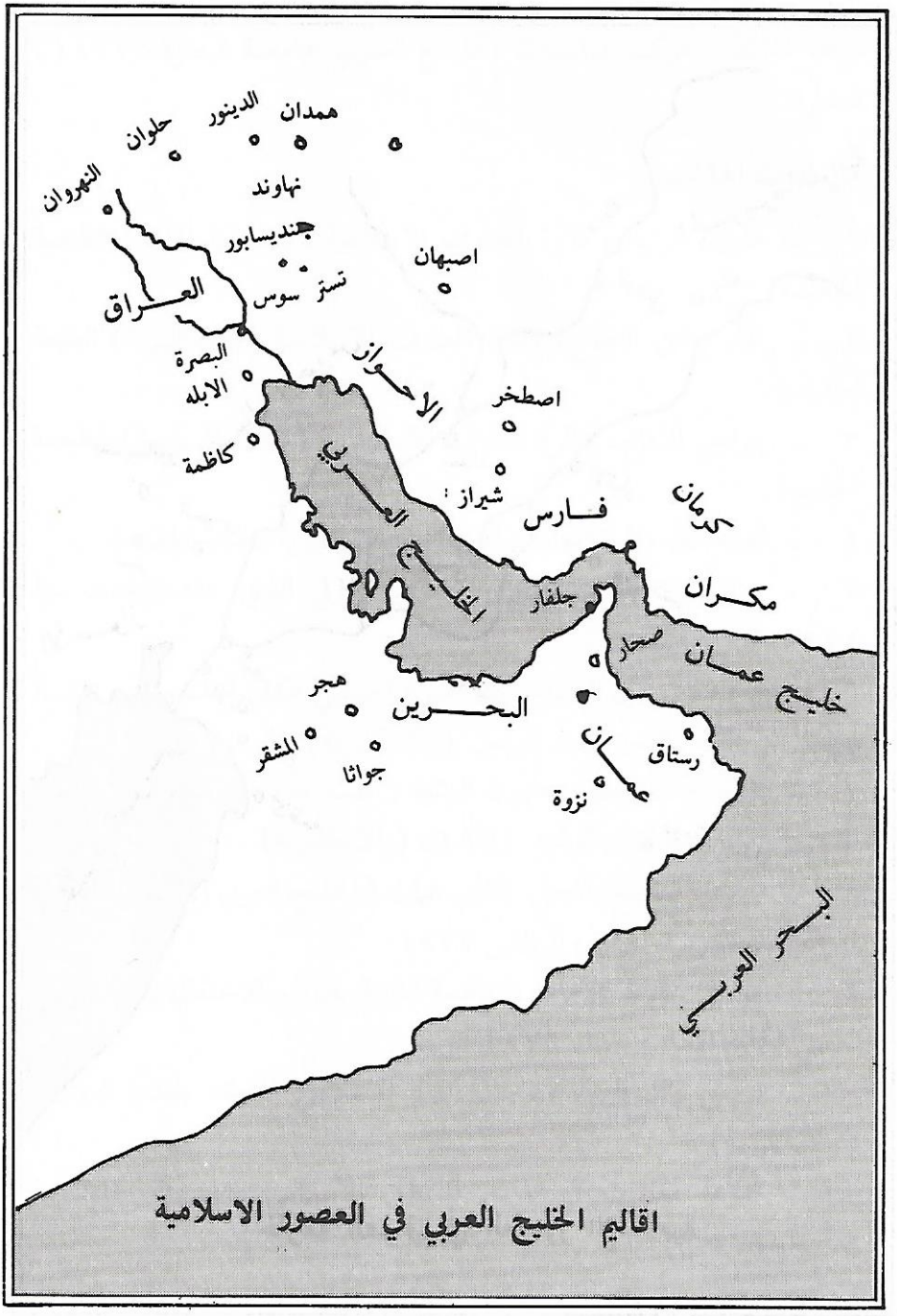

اقاليم الخليج العربي في العصور الاسلامية

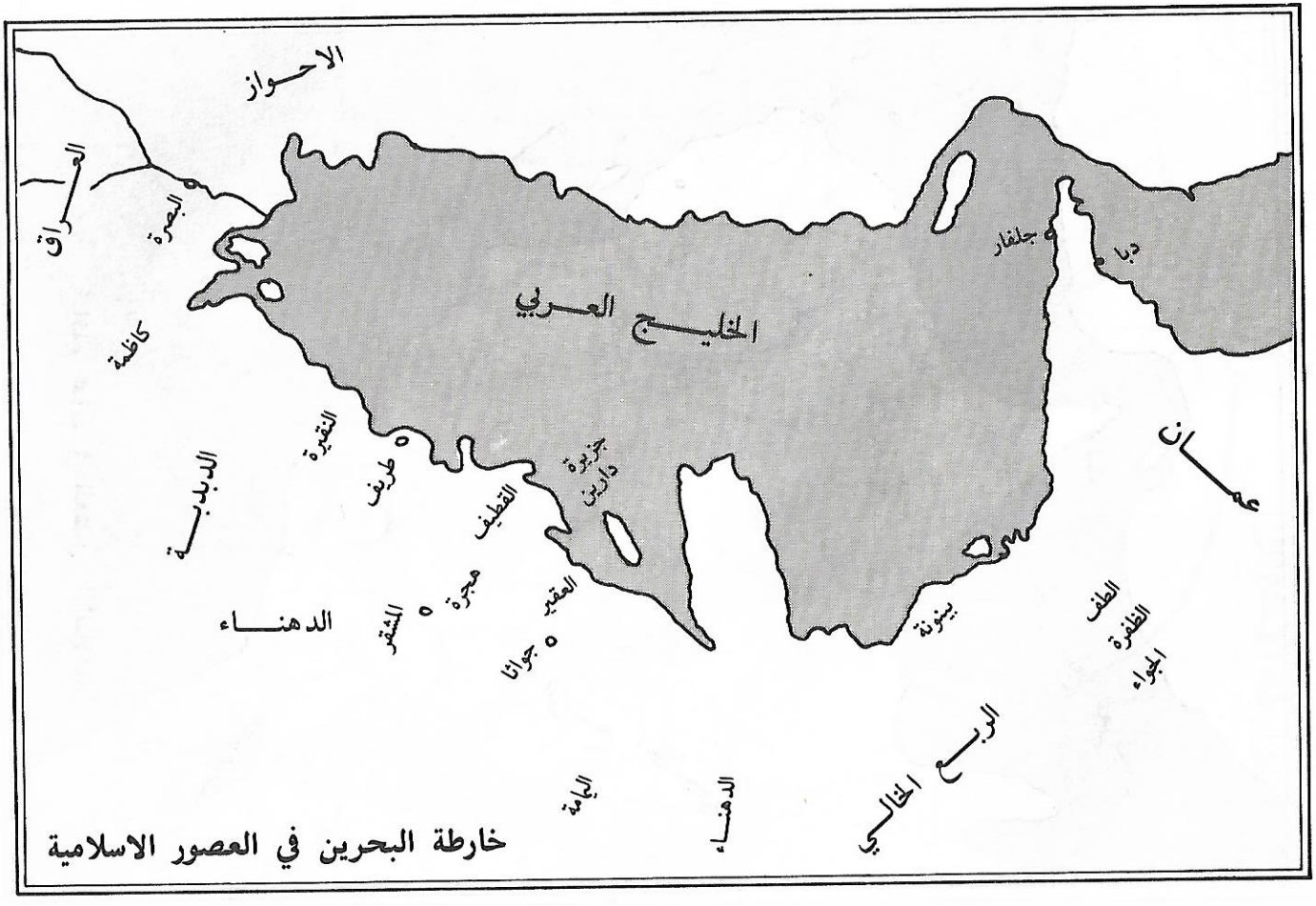

خارطة البحرين في العصور الاسلامية

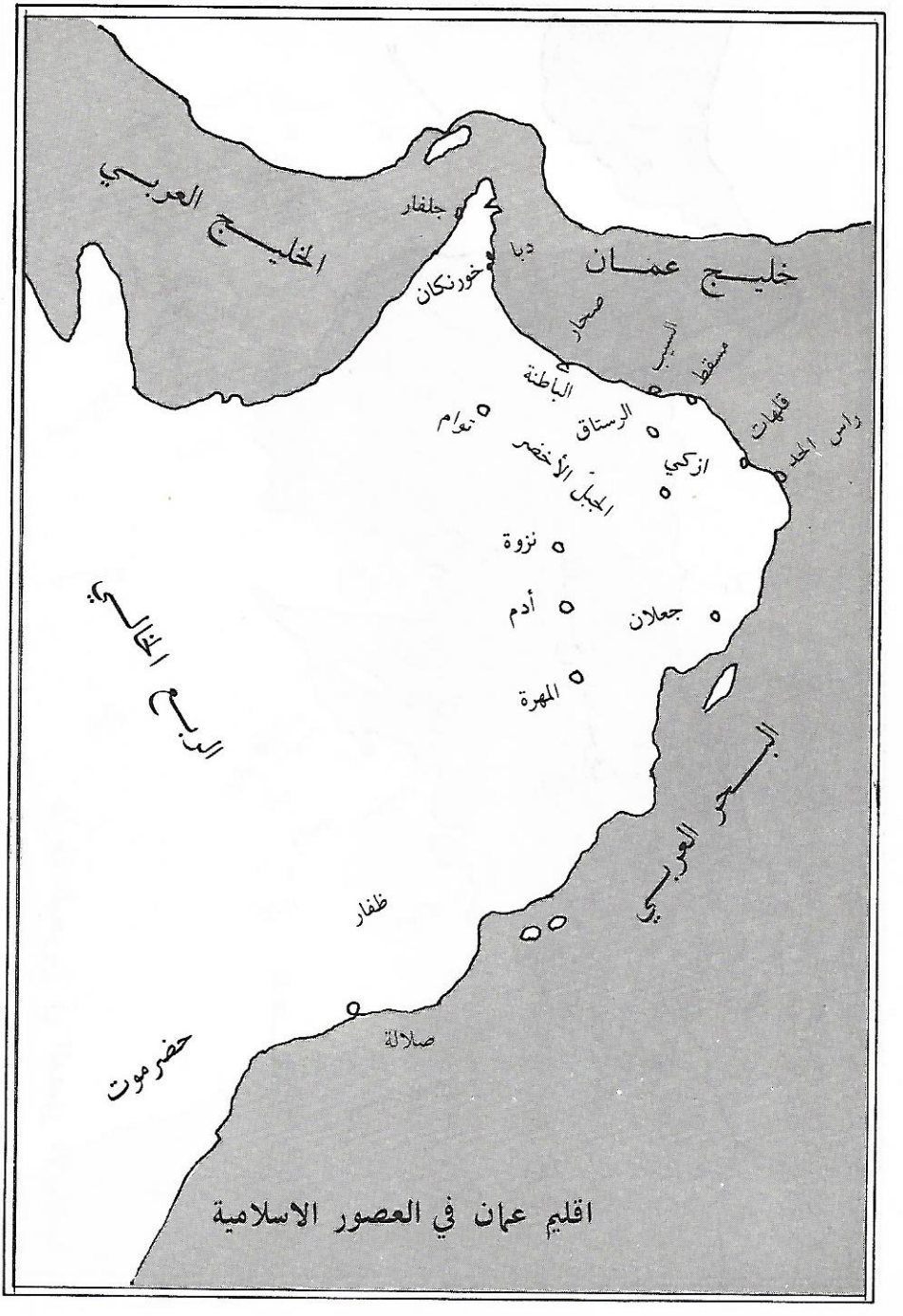

اقليم عمان في العصور الاسلامية